القَدَرُ

في

ضَوْءِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

ترجمة كتاب

Kitap ve Sünnet Perspektifinde Kader

عن التركية



دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الخامسة: ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م

DAR AL-NILE

Emniyet Mah. Huzur Sok. No: ٥

٣٤٦٧٦ Üsküdar – İstanbul / Türkiye

Tel: +٩٠ ٢١٦ ٣١٨٦٠١١ Faks: +٩٠ ٢١٦ ٣١٨٥٢٢٠

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة – الحي السابع – مدينة نصر – القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٢٦٣١٥٥١+

المحمول: ٢٠١٦٥٥٢٣٠٨٨+

جمهورية مصر العربية

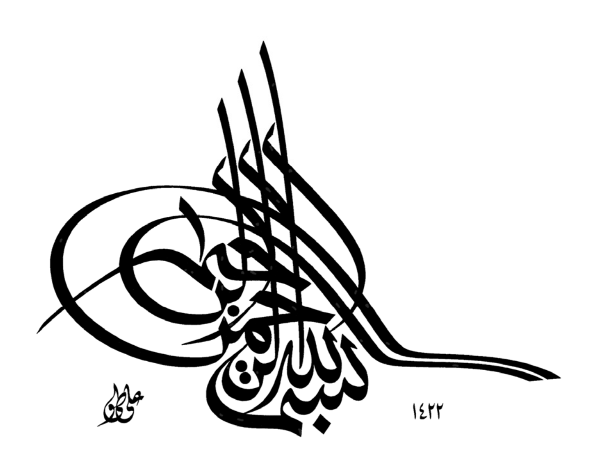
www.daralnile.com



المؤلف : محمد فتح الله كولن

ترجمة

إحسان قاسم الصالحي


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٢

تقديم

إنَّ مسألة القدر قد عُدَّت من مزَلاَّتِ الأقْدام منذُ سَالف العصُور؛ لذا أَجمل علماء الإسلام أهم أُسسها بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، دون أن يخوضوا في جوانبها المتشعّبة والعَميقة صوناً لعوام النّاس من الضياع في مسالك يجهلونها لدى البحث عن التفاصيل الدقيقة التي فيها.

ولكن بمرور الزمن أخذ الفكر المادي ينتشر في العالم كله، حتى أصبح أساساً لأنظمة بعض الدول، والحجر الأساس لأنظمة التعليم في مستوى العالم كله، فبدأت أجراس الخطر وصفارات الإنذار تدقّ عندنا كذلك، إذ أخذ يغزو تدريجاً مراكز التعليم في العالم الإسلامي أيضاً، حتى غدا كأنه أسلوب يحتذى به، فنمّى روح الانتقاد بنشر الشبهات والريب في الأوساط العامة والخاصة. وعندها وجد الماديون مسائل القدر كأنها موضع هَشٌّ للهجوم، فشنّوا هجماتهم في هذا الموضع بما يملكون من قوة، في الوقت الذي كان المسلمون يتحرجون من الخوض فيه.

إن الأجيال الحاضرة الذين جُرّدوا من التعليم الديني وحُرِموا منه، باتوا ضعافاً، عزّلاً وبلا حماية ووقاية تجاه هذه الهجمات المكثفة القوية، فأصبحوا حيارى تائهين، بل لم يقدر الكثير منهم الصمود لإنقاذ نفسه من التردي في دوامة الإنكار والجحود.

وجبهتنا ما كانت أفضل حالاً من غيرها، إذ كانت تعاني من صدمة عدم التهيؤ والاستعداد للمبارزة، حيث المعلومات المتراكمة منذ أمد بعيد ما

كانت تُغني شيئاً لمجابهة أسلحة الهجوم الحالية، فضلاً عن أن الجبهة المقابلة تعمل بتنظيم وتنسيق، وبشخصية معنوية عالمية. وثانيا كانت تستهدف التدمير والتخريب دون التعمير الذي هو صعب وعسير. وثالثاً إنَّ تيار الإلحاد كان قويًّا وسارياً سريان الوباء. ومن هنا ما كان هناك تكافؤ بين الجبهتين: فالجبهة المضادة لها وزنها وثقلها، مما دفع أهل الوجدان الغيارى إلى الفزع من المصير، ولاسيما عندما بدأ هذا الفكر ينتشر انتشار النار في الهشيم حتى غزا المقاهي والمجالس العامة.

ففي هذا الوقت الدقيق الحرج بدأ العالم الجليل م. فتح الله كولن بمواعظه ودروسه بأسلوب حواري بين سؤال وجواب، وانطلق يجوب في ميدان واسع جدّاً من العمل، بدءاً من منصة الوعظ في الجامع إلى مقاعد المقاهي العامة المنتشرة في المناطق المختلفة في المدينة إلى محيط الجامعة وصفوف المثقفين. وقد كنا شهود عيان لهذا العمل الدائب والخدمة الجليلة، إذ ما كان يصدر سؤال من أي أحد كان، وبأي أسلوب كان، فيطرحه دون تردد وإحجام، إلاّ ويأخذ جواباً شافياً وافياً. ولاسيما الأسئلة الواردة حول مسائل القدر، لما فيها من غموض ومزالق أقدام. فكانت الأجوبة واضحة جلية نيِّرة تزيل ما علق في العقول والأذهان من أدران الشبهات، وتنقي الأفكار من لوثات الضلالات المشوشة. ولقد كنا نلمس التحول ونشاهده رأي العين، إذ كانت الجلسات تبدأ بعدم المبالاة وعدم الاكتراث من الحاضرين ولاسيما في المقاهي، وربما قلة توقير وإحجام عن الإنصات، أو بردود مفتعلة وإثارة صخب، ولكن بعد فترة إذا بالحاضرين يتحولون إلى آذان صاغية تدريجيّاً ويستمعون إلى المحاورة وكأن على رؤوسهم الطير.

كانت الأسئلة والأجوبة تسجّل على الأشرطة، وتتناقلها الأيدي. فنجّى الله بها الكثيرين من الحيارى من مستنقع الضلالة، وأصبحوا سبباً في إنقاذ أصدقائهم؛ لأن الكلمات التي تلقى في المحاورة ما كانت كلمات باردة

وتعابير منطقية جافة فاقدة للروح، بل ثمرات أينعت في قلب حزين وسقيت بدموع عين شاهدت ضياع جيل كامل غير محظوظ، قد فقد التسليم والانقياد وانهدّت لديه أُسس الاحترام والتوقير، وغرق في مهاوي الإنكار والجحود.. نعم هذه الكلمات كانت تحمل من الحرارة النابضة والدفق الحيوي والعطف والحنان، حتى أصبحت وسيلة لإرجاع الكثيرين إلى رشدهم وعودتهم إلى صوابهم، بل دفعتهم إلى إنقاذ من يليهم بإذن الله.. نعم إنها كانت اهتزازات وجدان ينقب عن دواء من صيدلية القرآن الحكيم وينتقي منها ما يلائم عقول المخاطبين الذين كان منهم من لا يعرف حتى آداب السؤال، فيضع البلسم الشافي كالطبيب الحاذق ويسقيهم إياه بعطف وحنان غامرين، فأثمرت بفضل الله نتائج بهيجة جميلة في عالم أرواح المخاطبين.

إن موضوع القدر بشكله التعريفي يعرض أمام المخاطبين في مساحة واسعة سعة الكون أجمع، إذ يبيّن النظام الدقيق في الكون كله بدءاً من الذرات والنوى والبذور إلى السيارات والمجرات، فيوضح أن كل موجود في الكون قد صُمم وخُطط له مذ خلقه ربه. ويبين أيضاً أن انكشاف معنى القدر في وجدان الإنسان وحلّ أسراره واحدة تلو الأخرى، هو الآخر نقطة أساس في هذه المسألة، ويُلفت النظر إلى الفروق بين مفهوم القدر لدى "المبتدئ" الذي ما زال في أول الطريق، والذي قطع أشواطاً بعيدة في عمق الإيمان وسر الإخلاص والاستغراق في العبادة حتى بلغ "المنتهى". ويُنبه أيضاً إلى أن معرفة بعض دقائق علم القيافة وحلّ بعض أسرار ماهية الروح ووظائفها من ملامح وخطوط سيماء الإنسان ينعقد أيضاً في القدر. ومن جانب آخر لا يَشِلُّ إرادة الإنسان ويمنحها حقَّ الاختيار. وفي الوقت نفسه يضع لإهل البصائر مقاييس وجْدانية، بدءً من مسؤولية الاختيار بلا غرور إلى قضيته ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾(الأعراف:١٧٢). والحقيقة إن نفاسة الأجوبة تضفي على الموضوع بعداً آخر من الجمال والبهاء .

والفصول الثلاثة الأولى لهذا الكتاب، جامعة لسلسلة المواعظ والدروس

التي ألقاها ارتجالاً العالم الجليل م. فتح الله كولن، وسجّلت مباشرة على أشرطة التسجيل، ثم حُوّلت إلى أسلوب الكتابة، وعُرضت على الأستاذ المؤلف الفاضل. وبعد إجراء التصحيح والتشذيب خُرّجت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة. أما الفصل الرابع من الكتاب فهو فصل الأجوبة عن الأسئلة التي وجِّهت إلى الأستاذ الفاضل بوسائل مختلفة وفي مواضيع شتى.

وبعد الانتهاء من تنسيق الكتاب وضعت له فهارس، فأصبح حقّاً كتاباً يمكن عده من كتب المصادر والمراجع.

وعلى الرغم من أن تلك الهجمات المكثفة المنظمة تبدو كأنها توقفت، فإن إلقاءات النفس ووساوس الشيطان تكدر صفو عالمنا الداخلي في أحْيَانٍ كثيرة، مما يزيد الحاجة إلى هذه الأدوية الشافية.

وفي الواقع إن هذا الكتاب "القدر في ضوء الكتاب والسنة" ليس هو أجوبة لبعض ما ورد من الأسئلة فحسب، بل هو شعاعات إيمانية يجد بها القلب والعقل والوجدان اطمئنانه، ومن هنا تكون الحاجة إليه ماسة وباستمرار.

إن العمل للإيمان والقرآن وعلى مستوى العالم، يبدأ في الحقيقة بتقعيد هذه الحقائق الإيمانية على أسس متينة، إذ العالم برمته بحاجة إلى هذه الحقائق التي يجهلها وفي المقدمة أوربا وأمريكا. ولهذا تقتضي الضرورة ترجمة هذه الحقائق إلى لغات العالم الأخرى ليعم نفعها.

ونغتنم هذه المناسبة لنقدم أجزل شكرنا إلى أستاذنا الفاضل ونبارك الذين أصبحوا وسيلة في إنجاز هذا العمل الجليل. سائلين المولى القدير أن يرزق أستاذنا عمراً مباركاً ويوفقه للمزيد من العمل في خدمة القرآن والإيمان.

آمين.

صفوت سنيح

المدخل

القدر هو تقدير الله العليم -ذي العلم المطلق- بالماضي والحاضر والمستقبل، وهو يرى الزمن بأبعاده الثلاثة كزَمَن واحد؛ بل ليس هناك ما يسمى بالماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة إليه ﷻ، فالقدر هو هذا العلم والرؤية ثم التسجيل الكامل لكل ما كان ويكون، بل قبل أن يكون، في كتاب مبين، إذ هو المحيط بعلمه وتقديره بوجود كل شيء في الوجود، وبكل ما يكون، سواء من أصغر الذرات إلى أَكبر المجرات وإلى الإنسان، ومن ثم تنظيمه ﷻ كل شيء وفق وجوداته العلمية وتنسيقه له وتعيينه إياه وتصنيفه وتسجيله وتقديره. آخذاً كل ذلك من دائرة علمه إلى دائرة قدرته وإرادته ومشيئته، مظهراً ذلك الشيء إلى العالم الخارجي، أي عالم الوجود.

والإيمان بالقدر، هو أحد أركان الإيمان الستة. فكما أن الإنسان يؤمن بالضرورة بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، يؤمن كذلك بالضرورة بالقدر. فلا يمكن تصور الإيمان بالقدر خارج الأركان الأخرى. والقدر إنما يكون موضوع بحث فيما يخص الإنسان من تفكير وأطوار وحركات تتدخل فيها إرادته. ومن المعلوم أن جميع المسائل المتعلقة بالقدر تكسب أهميتها وقيمتها عندما تكون في دائرة إرادة الإنسان؛ إذ بخلاف ذلك يصبح كل ما يقال حول القدر من قبيل الإعلام بالمعلوم. أي عندما لا نفكر بالإنسان وبإرادته فإن كلامنا حول القدر يكون عبثاً لا معنى له. إذ كما أضفى وجود الإنسان معنى ولوناً على الكائنات كلها كذلك إرادته الجزئية جعلت مسألة القدر ذات أهمية، وذات لون خاص.

لذا فنحن في هذا الكتاب نبحث عن القدر الذي يتعلق بإرادة الإنسان، ونتحرى في الوقت نفسه أجوبة التساؤلات التي تراود الأذهان منذ القدم حول الجزء الاختياري.

ندعو المولى القدير أن يلهمنا فهم القدر وإفهامه الآخرين في ضوء ما عليه أهل السنة والجماعة، وما توفيقنا في مثل هذا البحث إلاّ بإحسانه تعالى ووسيلتنا إليه عجزنا وفقرنا.

الفصل الأول

القدر بأبعاده المختلفة

١. معاني القدر لغة واصطلاحاً

القدر لغة: التقدير. يقال: "قدر الشيء" أي بيّن مقداره؛ و"قدّر الشيء بالشيء" أي قاسه به وجعله على مقداره؛ و"قدّر الأمر" دبّره، قضى وحكم به. ويرد بمعنى القوة والطاقة أيضاً. وعندما تنتقل الكلمة إلى باب التفعيل: قدّر، يصبح معناها: حكم به، نفذ حكمه، قضى.

نجد من مجموع هذه المعاني أن القدر اصطلاحاً هو: ما قدّره الله سبحانه من القضاء وحكم به.

والآيات الجليلة الآتية تؤيد التعريف الوارد أعلاه:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(الأنعام: ٥٩).

﴿قُل لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ ۞ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾(يونس: ٤٩).

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(النمل: ٧٥).

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم وَكُلَّ شيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾(يس: ١٢).

﴿بَل هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۞ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾(البروج:٢١-٢٢).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىَ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾(الملك: ٢٥-٢٦).

ويرد القضاء والقدر بمعنى واحد من جهة، إلاّ أن القدر -بمعنى آخر-

يعني كل ما قدّره الله سبحانه، أما القضاء فهو إنفاذ هذا التقدير، وأداء ما قُدِّرَ وإجراء حكمه.

والقدر تفويض كل شيء إلى الله تعالى أثناء وجوده العلمي وقبل أن يظهر إلى الوجود الخارجي. فالأشياء المهيأة لورود الوجود الخارجي وتحاول أن تأخذ مكانها في سلسلة الوجود، تُكتب في لوح المحو والإثبات الذي هو مستنسخات اللوح المحفوظ من قبل الملائكة الكرام ضمن علم الله المحيط بكل شيء.

فالقدر هو اقتران ما خلقه الله سبحانه بكسب الإنسان، أي أن الإنسان يباشر بعملٍ ما، فيؤدي بإرادته ذلك العمل، والله سبحانه يخلق بمشيئته ذلك العمل. وهكذا فالقدر هو تقدير الله سبحانه لوجود الأشياء بعلمه الأزلي والأبدي قبل وجودها وبعد وجودها؛ لذا فليس صحيحاً عدّ القدر عنواناً للعلم فحسب، إذ معنى القدر يسع فضلاً عن تقدير الأشياء وتعيينها بعلمه سبحانه، بصَرهُ وسَمعَهُ وإرادَتهُ ومشيئته. وحيث إن الأمر هكذا، فإن إنكار القدر يعني إنكار جميع صفات الله ﷻ. ولهذا فإن كثيراً من المحققين تناولوا القدر ضمن بحثهم عن ألوهية الله ﷻ. فقالوا: لا داعي إلى بحث مستقل للقدر، لأن الضرورة تقتضي تناول القدر ضمن بحث الألوهية. إلاّ أننا لا نرى الأمر مثلهم، لأنه ربما يشمّ من هذا المفهوم –من جهة– عدم قبول القدر ضمن أركان الإيمان. لذا نقول: مثلما نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، كذلك نؤمن بالقدر. وذلك لئلا نكون قائلين بما يومئُ إلى إنكار القدر سواء أكان إجمالاً أو تفصيلاً أو بأي شكل من الأشكال. أما إذا أخذنا أصل المسألة بنظر الاعتبار نرى أن الإمام أحمد بن حنبل يقول: "القدر من القدرة". فمن ينكر القدر فإنه ينكر كثيراً من الأمور التي تخص الألوهية. أي تتزعزع عقيدة الألوهية وتتهاوى أنظمة الفكر وأسس المفاهيم.

ومن هنا فالقدر موضوع جليل، وقد ضلّ الذين لم يتناولوه ضمن مفاهيم أهل السنة والجماعة. وتدخل عقلانية "المعتزلة" وحتمية "الجبرية" ضمن هذه الضلالة.

٢. القدر الجبري المهيمن في الكون

إن الحاكم المهيمن على الكون كله هو القدر والتقدير والنظام والانسجام والتخطيط والميزان والاتزان. فالآيات الجليلة تعلّمنا بهذا القدر المنظّم في الكون:

﴿اللّٰهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۞ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۞ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾(الرعد: ٨-١٠).

﴿وَإِنْ مِن شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾(الحجر:٢١).

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾(الرحمن: ٧).

نعم، إن القدر يسع الكون كله ويشمل كل ما فيه بحيث لا يمكن تصور أي شيء خارجه. فالله سبحانه، خالق الكون قد وضع في كل شيء بعلمه المحيط، ميزاناً واتزاناً ونظاماً وانتظاماً وقدراً معيناً.. من انفلاق الحب والنوى إلى انبعاث الربيع الزاهر، ومن تصوير الإنسان في الأرحام إلى ولادة النجوم في المجرات. بل إن جميع ما دوّنه العلماء المحققون في العالم كله، في مئات الألوف من كتبهم ما هو إلاّ ترجمة لهذا النظام والانتظام والتقدير الشامل المحيط.

إن القدر الحاكم على الكون يؤمن به القاصي والداني، العدو والولي، المؤمن المعتقد والمنكر العنيد، بل حتى "ماركس" (Karl Marx) عندما يتكلم عن "الحتمية" (Determinizm) إنما يبين هذا القدر الحاكم. وعلى الرغم من أن بعض علماء المسلمين يقرّون نوعاً من الحتمية كـ"ابن خلدون"، بل

يجعلونها شاملة على الحياة الاجتماعية أيضاً كما هو في "الحتمية التاريخية" في الغرب. فإننا ضمن مفهوم أهل السُّنة والجماعة نقيد هذه الحتمية بشروط معينة ولا نقرّها على إطلاقها، بل نقبلها مع تلك الشروط، علماً أننا نقرّ بوجود قدر حاكم مهيمن على كل شيء بما فيه الإرادة الإنسانية.

لا شك أننا عندما نقوم بمشروع بناء أو عمل ساعة، فإننا نبدأ أولاً بوضع تصميم وتخطيط بمواصفات معينة؛ فنبدأ نقدّر ونحسب كل ما يمكن أن يظهر في المستقبل ضمن هذه المواصفات سلفاً. فلئن كان هذا التخطيط والتصميم في بناء بسيط أو في آلة بسيطة، فكيف يمكن تصور هذه الأنظمة الدقيقة والتوازن الدقيق المحيّر للعقول بدءً من الذرات ووصولاً إلى الإنسان، دون تخطيط أو منهاج؟ ترى هل هذا النظام البديع المشاهد في الكون أقل شأناً من نظام البناء أو الساعة؟!

إن البذور والنَّوى ما هي إلاّ عُلَب مشحونة بالقدر، فلقد دُرجَ في البذرة كل ما تمضيه من صفحات حياتها بل حياة الشجرة كاملة مندرجة في تلك البذرة، حتى إذا ما ألقيت في التراب تنشق عن ألوف الأُلوف من أنواع النباتات والأشجار والأزاهير المتنوعة، على الرغم من تشابهها من حيث التركيب وتشكلها من المواد البسيطة نفسها. فكل بذرة تعرض أمام الأنظار وهي تنشق عما فصّل القدرُ على حجمها وقدره من لباس، أو تتشكل وفق الصورة العلمية والمعنوية التي وضعها لها القدر. فلو عمل ألوف من الخياطين، طوال سنين مديدة، لا يستطيعون أن يوفقوا حتى إلى خياطة لباس كامل لشجرة واحدة فقط. بينما الأشجار والنباتات جميعها تصنع لنفسها الملابس منذ الخلق. فلا مناص من تفويض هذا الفعل إلى القدر الحاكم. وإلاّ فكيف يمكن أن يوضّح هذا الأمر بغير القدر؟

تأمل في قصر الكون العظيم هذا! فالواقف أمام التلسكوب يرى الأبعاد الشاسعة على مسافة خمسة ملايين سنة ضوئية. يعني إذا انطفأ "نجم نابض"

فإنك لا تشاهد انطفاءه إلاّ بعد خمسة ملايين من السنين! أو لو أصبحتَ ضوءً وأردت الذهاب إلى هناك فإنك لا تبلغه إلاّ بعد خمسة ملايين من السنين! أفلا يدفع هذا الكون العظيم وهذا النظام الدقيق الإنسان إلى الإعجاب والحيرة؟

ومن جانب آخر نرى أن هذا العالم الواسع له علاقة وثيقة مع الإنسان هذا العالم الصغير وخليفة الله في الأرض، بحيث إن هذه العلاقة الوثيقة توضح التقدير المطلق والعلم المحيط لله الذي يمسك السموات والأرض بأدق نظام وأبدع ميزان وأروع تقدير وتدبير. فالتناسب الدقيق البيّن بين أعضاء الإنسان يمكن ملاحظته أيضاً في كل جزء من أجزاء الكون كذلك. وحقّاً ما قاله "جين" (Jean): "إن الذي وضع عالم الذرات وعالم الإنسان بل جميع العوالم وضعها وفق مقاييس هندسية دقيقة، فتشاهد هندسة حاكمة على الكون كله. أليست هذه الهندسة الحساسة الدقيقة الحاكمة على الكون كافية لإثبات الإله الأزلي الذي بنى الكون عليها".

ولنبسط المسألة حسب مدارك العوام:

لو كنتم على أهبة إنشاء بناء ولو كان بسيطاً، فلا شك أنكم ستراجعون أولاً من تثقون بدرايته في هذا الأمر وتسترشدون برأيه. ذلك لأن أي خطإ في في إرساء قواعد البناء –ولو كان طفيفاً– قد يؤدي إلى انهدام البناء فور إنشائه. لذا فإن تقدير حسابات البناء ضروري جدّاً. فهذا البناء البسيط يحتاج إلى تقدير وتصميم وتخطيط يلائمه، وأنتم لا تشرعون بالبناء إلاّ بعد إعداد وتهيئة الأوليات اللازمة، بل يجب أن تراعوا خطة الإعمار في البلدة التي أنتم فيها وتأخذوا بنظر الاعتبار موقع البناء وشكله الخارجي.. إلى آخره من الأمور الدقيقة التي يتطلبها البناء ولو كان بسيطاً، بينما الكون الواسع العظيم بحاجة إلى أدق الحسابات والمقاييس والتقدير. أوَ تريد مثالاً على ذلك؟

انظروا إلى قطعة تفاح تضعونها في فمكم، ولاحظوا العلاقة الدقيقة بينها

وبينكم؛ طعم التفاح وفمكم، الفيتامينات التي فيها وجسمكم، بل حتى ظل شجرته وحاجتكم إلى الظل، وحاجة شجرتها إلى ما تلفظونه من غاز ضار في الزفير، وقيامها بتنقية الهواء، ومن ثم شهيقكم وتنفسكم من هذا الهواء الصافي. وهكذا.. إلى مئات ومئات العلاقات الموجودة بيننا وبين التفاح –مثلاً–.. وما ذكرناه ليس إلاَّ نتفاً منها.

فإن شئتم أن تأخذوا المسألة في دائرة ضيقة –كهذا المثال– أو إن شئتم أن تأخذوها في ميدان أوسع بين النجوم؛ فلا ترون إلاّ نظاماً بديعاً وتوازناً دقيقاً وتقديراً في كل شيء.

إن حيواناً منوياً لا يكذب قطعاً، لأنه يتحرك على وفق نظام وخطة معينة، فلو قال سأكون إنساناً، يكون إنساناً، فهو يتكلم بلسان الكروموسومات وبالوظيفة التي لا تخطئ لــ(D.N.A) و (R.N.A) في توجيه الخلايا، لتكوين فم الإنسان وشفتيه وعينيه وأنفه وأذنيه وسيماه وكل ما فيه..

وواضح لدى الفلَكيين الفيزيائيين أيضاً الأبعاد الفضائية، ومعروف لديهم مسبقاً القوى المغناطيسية ومداها في تلك الأبعاد الهندسية الشاسعة وشدة القوى التي فيها. وقد ساعد اكتشاف الكمبيوترات على معرفة أن أي مخلوق في الكون إنما يُنظم وفق خطة معينة منذ خلقه.. وهذا الأمر جار من الذرات إلى المجرات. فلقد سُجّل وعُيّنَ كل شيء في اللوح المحفوظ.. وهذا ما نطلق عليه اسم "القدر".

ولعل من الأفضل أن نوضح المسألة أكثر..

إن ما ذكرناه –حتى الآن– هو حول القدر الجبري، أي القدر الذي لا يد للإنسان فيه، ولا دخل له فيه. فهذا القدر كوني، لا تؤخذ فيه إرادة الإنسان بنظر الاعتبار. فالله ﷻ يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد ولا يُسأل عما يفعل؛ فهو القاهر الجبار. ورغم ما ينطوي عليه كل مخلوق من حكمة إلاّ أن هذه الحكمة ليست مقيدة، لأنه سبحانه وتعالى ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾(البروج: ١٦). فالكرة

الأرضية منذ الخلق تدور حول نفسها وحول الشمس بسَوق من هذا القدر الجبري. فليس لأحد أن يقول لها: "قفي..". وكذا الشمس والقمر يتسابقان، وليس لأحد أن يمنعهما من هذا التسابق؛ لأن القدر الجبري هو المهيمن في هذا الجريان والتسابق.. فكل شيء خاضع اضطراراً لهذا القدر.

٣. القدر مسألة وجدانية

من الممكن إثبات وجود الله ﷻ، وكذا إثبات نبوة الرسول الكريم ﷺ بدلائل علمية مختلفة، حتى أنه يمكننا إثبات البعث بعد الموت كذلك بدلائل علمية. إلاّ أن القدر ليس هكذا، فهو مسألة حالية وجدانية وليست مسألة علمية نظرية.

فالإنسان يؤمن بالقدَر بقدْر درجة إيمانه، ويدركه ويصدّقه بقدر سعة مداركه وعمقها. فكم من الناس أمضوْا حياتهم في مسائل عميقة إلاّ أنهم لم يستوعبوا أصغر مسألة من مسائل القدر، فهؤلاء غير محظوظين حقاً حيث لم يشغل القدر أي موضع في وجدانهم؛ فلا جرم أن يشفق عليهم الإنسان. ولكن الراضي بالضرر -بإرادته- لا يستحق النظر إليه بعين الإشفاق والعطف. فهؤلاء لم يتبينوا أن وراء أفعالهم وإجراءاتهم إجراءات الله وأفعاله سبحانه. فعيونهم مطموسة لا تبصر، ونظراتهم قاصرة على إدراك أن كل ما يفعلونه قد خُطط وصُمم مسبقاً بتقدير وتدبير علمي من قبل الله سبحانه. فهؤلاء يمضون حياتهم بسطحية إيمانية، ومن الصعوبة بمكان ألاّ يقعوا في مفاهيم اعتزالية.

٤. ما يُكسبه الإيمان بالقدر

إن الذي أحاط علماً بمسألة القدر وحلّ الأسرار التي تخصّه في وجدانه مرحلة تلو الأخرى كمن يحل العقد، يفوض في النهاية كل شيء إلى الله

سبحانه، حتى يبلغ فهم الآية الكريمة: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(الصافات: ٩٦).

نعم، إن الله سبحانه هو خالقنا وخالق أفعالنا؛ فأكلنا وشربنا ونومنا ويقظتنا وتفكرنا وكلامنا.. كل ذلك بخلق الله سبحانه. وفي الحقيقة أن كل ما يخص الخلق، فهو مخلوق من الله سبحانه قطعاً.. هكذا يرى "المنتهِي" (صاحب الإيمان الواصل إلى أعماقه البعيدة) هذه الحقيقة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار؛ وذلك بسلوكه الوجداني. وحيث إن الأمر هكذا فمن الصعوبة بمكان ألاّ يقع هذا الواصل في "الجبرية".

نعم إن الإنسان كلما أعطى الفعل لله تجابهه الإرادة (إرادته الجزئية) في النتيجة وتذكّره بالمسؤوليّة لئلاّ ترتفع عنه المسؤولية. ولكي لا يغتر الإنسان في الوقت نفسه بفعله الحسنات يعمل القدر عمله قائلاً له: "لا تغترّ، أنت لست الفاعل"، فينقذه من الغرور. وهكذا يبلغ الإنسان التوازن، وتنتظم حياته وسلوكه بالحفاظ على هذا التوازن.

إن جميع الحسنات ما هي إلاّ من فعل الله وتقديره. فلا يستطيع الإنسان أن يتملكها. وإلاّ يقع في شرك خفي، لأن الله سبحانه هو الذي يهب الحسنات مباشرة، إذ نفْس الإنسان الأمارة بالسوء لا تطلب الحسنات قطعاً. ومن المعلوم أن المقصود من الحسنات هنا تلك الحسنات التي هي بذاتها حسنة وجميلة، وإلاّ فلا نقبل ما تتوهمه النفس الأمارة من جميل وحسَن. نعم، إنّ النفس الشريرة مدفوعة بشرها إلى كراهية الجميل والجمال ومعاداتهما.

إن النفْس الأمّارة بالسوء تطلب السيئات، لذا فالمسؤولية تقع عليها.. فالآية الكريمة الآتية تجمع هذين الأساسين معاً وتوضّح الأمر جلياً: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا اَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾(النساء: ٧٩). ومن هنا فليس لك أن تغترّ بحسناتك التي تعود إليك، لأن الحسنات ليست

لك بالذات، فكل ما هو حسَن وجميل إنما هو إحسانٌ من الله إليك؛ والإحسان يقتضي الشكر والتواضع، لا الغرور.

أما السيئات والذنوب فإن إرادتك الجزئية "شرط عادي" في خلقها؛ لذا تقع مسؤوليتها على النفس. ذلك لأنه تعالى خلق ما رغبت عمله ومالت إليه نفسك أو فكرت في القيام به، أو أي تصرف آخر في ميلك ورغبتك.

فهذه الأمور لا يمكن أن نفهمها إلاّ بالوجدان والحال. أي أن هناك شاهداً واحداً فقط على ما دار في خلدك من ميل أو أي تصرف في ذلك الميل، وهو الوجدان. فالله ﷻ اتخذ وجدانك شاهداً على علمه.

أما الإنسان "المبتدئ" فهو يؤمن أيضاً بالقدر، ولكنه ينظر الى الماضي والبلايا التي تصيبه من زاوية القدر، فيقول: "إن البلايا والمصائب النازلة هي من تقدير الله"، فينجو من اليأس. أما عندما ينظر إلى المستقبل والمعاصي فإنه ينظر إليها من زاوية الإرادة الجزئية، فيقول: "سَأُحَصّل ما قُدّر لي على كل حال"، فلا يرمي نفسه في أحضان الكسل، ولا يجعل القدر وسيلةَ تسلية تجاه ما نواه من السيئة، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إلاَّ مَا سَعَى﴾ (النجم: ٣٩).

نعم، إن الله سبحانه هو خالق كل شيء، من حسنات وسيئات، لأن الخلق يخصّه هو وحده، ولكن المسؤولية تقع على من أراد السيئة.. فهذا النمط من الإيمان هو أساس إيمان المبتدئ الذي لم يخض تجربة الإيمان بأعماقه البعيدة.

أما وراء هذا فلا يجوز الخوض فيه؛ أي لا يجوز للمبتدئ الخوض في مسألة القدر أكثر من هذا الحد وليس له أن يلوك مسائله الفرعية بلسانه؛ لأن القدر مزلّة الأقدام وهو مسألة دقيقة جداً. فقد كان الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان يمنع طلابه من مناقشة مثل هذه المسائل. وعندما كان يُسأل: "وأنت لما ذا تتكلم فيه"، يجيب: "أتكلم خائفاً وكأن على رأسي الطير".

ويقصد به: إنكم عندما تتكلمون في القدر تقصدون الغلبة والظهور على خصمكم، ولهذا أمنعُكم عن الخوض فيه.

إن الدقة المتناهية في هذا الموضوع وحظر الخوض فيه لا يكدر صفاء منطقية المسألة التي بحثت. إذ لا يجوز الكلام كيفما اتفق في مثل هذه المسائل، ولاسيما مسألة القدر، إلاّ من كان حاذقاً ماهراً مهارة الصائغ وحذاقة الكيميائي.

٥. لا تضاد بين القدر والإرادة الجزئية

لا تناقض -من حيث الأساس- بين القدر وإرادة الإنسان، بل هما متكاتفان. فلئن كان دخول الإنسان بحسَناته الجنةَ وبسيئاته جهنم قضية، فهي قضية تعني بلسان القدر تصديق رب العالمين لها، ومن جانب آخر تأييده لإرادة الإنسان. بمعنى أن في الإنسان قوة تدفعه إلى الخيرات والحسنات والدخول في الجنة، أو بالعكس؛ أي فيه قوة تسوقه إلى السيئات والشرور والآثام فتُدخله جهنم. فهذه القوة تشكّل الأساس في التقدير، وما هي إلاَّ الإرادة. ووجود هذه الإرادة لا ينافي التقديرالإلهي ولا يضاده.

وفي الحقيقة يمكننا أن نرى هذا في أفعالنا جميعًا. فمثلاً: إذا أردنا رفع أيدينا، فإننا نتمكن من ذلك إن لم يكن هناك عارض، ويمكننا كذلك أن نتكلم أيضاً عندما نريد ذلك، يعني أن قيامنا بأفعالنا يثبت وجود إرادة لدينا، فإن شئت أطلقت عليها الجزء الإختياري، أو المشيئة، أو الرغبة والطلب.. فالنتيجة لا تتغير بتغير الأسماء، إذ وجود الإرادة -التي لا نعرف ماهيتها- واضح وضوح الشمس.

أما إذا نظرنا إلى المسألة من حيث التقدير الإلهي، فنرى كأن الله سبحانه يقول للإنسان: "إنني أعلم أنك ستستعمل إرادتك في هذا الوقت في الفعل المعيّن، ولهذا أقدّر لك هذا الفعل بهذا الشكل". وهذا يعني أنه تعالى لا يحجر على إرادة الإنسان.

نعم، إن الله سبحانه هو خالق كل شيء. ولما كان عليماً بالأُمور كلها، فإنه يوجّه تقديره إلى حيث تتوجه إرادة الإنسان. بمعنى أن القدر لا يحول القدر بين الإنسان وإرادته، غير أنه يحيط بإرادة الإنسان، أي يعلمها وعلمه بها لا يعني تقديرها مسبقًا.

٦. القدر نوع من العلم الإلهي

القدر هو ما فصّله الله سبحانه –في علمه– من تخطيط وتنظيم وتصميم للأشياء. والعلم بالشيء لا يعني إيجاده، إذ لو عرفت تصميم ألف بناء وحفظت خطة عمل لمئات المصانع، فلا يأتي بعلمك هذا أي شيء للوجود، بمجرد ما في حافظتك من تصميم وتخطيط. إذ لإيجاد تلك المباني والمصانع لا بد من إرادة وقدرة. وبخلافه فذلك التخطيط والتصميم ليس إلا علم يخصك وحدك. فأنت تدور فيه خيالاً، وأي عارض في خيالك يؤدي إلى ذهاب تلك البنايات والمصانع، حتى إذا ما ضعفت المخيلة وجفت ينابيعها تصبح كأن لم يدر فيها شيءٌ قط من المعرفة والتصميم والتخطيط.

ونقول أيضاً: إن القدر من نوع العلم، والعلم تابع للمعلوم دائماً؛ أي على أيّ كيفية يكون المعلوم، كذلك يحيط به العلم. وليس المعلوم تابعاً للعلم. وحيث إن الأمر هكذا فإن الله سبحانه يعلم ما سنعمل وكيف نعمل بإرادتنا، ويضع تقديره على وفق علمه. فعلمُه محيط بكل شيء؛ بل التعبير بـــ"أن هذا الشيء يعود إلى علمه" سوء أدب مع الله؛ إذ لا شيء خارج علمه، وإنما نستعمل هذا التعبير لتقريب المسألة إلى العقل وبقصد التوضيح.

لنفكر –مثلاً– في قطار يقطع المسافة بين محطتين معلومتين بزمن معلوم. فهذه نتيجة محسوبة ومحسومة وهي معلومة قبل حركة القطار بكثير. وتطبع هذه المعلومات في قوائم ولوحات أحياناً. فالنتيجة المعلومة هذه عبارة عن تخطيط وتصميم. والآن إذا ما قسنا المثال على مسألتنا نقول: "إن هذه

النتيجة هو القدر". إلاّ أن هناك أمراً وهو أن هذه المعلومات التي لدينا ليست قوة جبرية تدفع القطار إلى الحركة؛ بمعنى أن القطار لا يسير إلى المحطة المعنية لأن هذه الخطة مرسومة ومصممة، وإنما لأن القطار سيكون في تلك المواعيد في تلك المحطات حسب تصميم هذه الخطة، أي في قَدَر القطار يُسجّل هكذا، حيث إن العلم تابع للمعلوم. فكيفما يكن الشيء يكن العلم به، ويوضع التقدير بحقه وفق ذلك العلم.

إن علم الله سبحانه يطل من الأعلى، ينظر في آن واحد إلى كل ما حدث ويحدث وما سيحدث كأنه حادث الآن. فالسبب والنتيجة، والعلة والمعلول، والبداية والنهاية، مندمجة كلها في علمه، منحصرة كلها في نقطة واحدة بلا زمان ولا مكان. ولهذا فليس هناك أول وآخر، وقبلُ وبعدُ. أي أن علم الله سبحانه محيط بكل شيء من جميع جهاته. فهو سبحانه يقدّر تقديره وفق هذا العلم المحيط. ولهذا فهذا التقدير قد حسب حساب إرادة الإنسان في الأفعال الإرادية ولا يخرجها من حسابه، أي لا يبطلها.

إن أفعال الإنسان محفوظة كلها مسبقاً في اللوح المحفوظ، وأن ما قُدّر له بعد ذلك وعُلّق على عنقه هو ما استُنسخ من هذا اللوح المحفوظ، كما هو واضح في الآية الكريمة: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾(الإسراء: ١٣).

نعم إن كل ما سيفعله الإنسان قد كُتب مسبقاً، وإنما هو بأفعاله يضع ما كُتب في حقه موضع التنفيذ. وإن هذا القدر المكتوب هو ما عُلم بعلم الله من أفعال سيفعلها، أي معلومة مسبقاً. وهذا العلم ليس قوة تجبره على الفعل. وإذا ما قورن الكتاب المعلق على عنق الإنسان مع ما يسجله الملائكة من أفعاله، يشاهَد أن الإنسان لم يفعل سوى ما كُتب له بحذافيره. والله سبحانه سيُقرئ الإنسان هذا الكتاب ويحاسبه وفق ذلك.

وبهذه المناسبة أريد أن أشير إلى ما يأتي:

إن الذين يزاولون مسائل الروح مزاولة جادة يقولون: "إن الروح قرين

الجسد، يعني إن مع البدن المثالي هناك جهة ثانية للإنسان فيها ما يخص حياته من تقدير وتعيين؛ لذا يمكن معرفة ما هو مقدّر للإنسان -إلى حدّ ما - عندما يكون الإطلاع كاملاً على ماهية روحه ووظيفته".

هذا وإن المشتغلين بـــ"علم القيافة" (أي المعاني التي تفيدها الجهة المادية للإنسان كالخطوط الموجودة في كفه) يرون: أن هذه الأمور تعني انعكاسات للقدر على جسم الإنسان. أي يمكنهم أن يعرفوا ما سيقع على الإنسان من أحداث ولو بشكل جزئي. حتى إن الذين وُهبوا بصيرة نفّاذة وفراسة قوية يستطيعون أن يحدسوا بعض مقدرات الإنسان المستقبلية بمجرد النظر إلى سيماه. وهذه الأمور ليست معرفة بالغيب، لأنهم يعتقدون أن الأسرار التي تخص القدر قد وضعت على شكل إشارات وعلامات في جسم الإنسان. وحتى لو كانت هذه الإشارات غيبية بالنسبة للجاهلين بهذا العلم؛ فإن الغيب بالمعنى الحقيقي لا يُحصر في هذه المعلومات. بمعنى أن ما أوردناه لا يُعارض حكمَ "لا يعلم الغيب إلاّ الله". إذ إن محاولة معرفة القدر من الإشارات والعلامات الموضوعة في جسم الإنسان كان علماً موجوداً حتى في عصر النبوة، وكان يسمى العالم به (القائف). والرسول ﷺ لم ينكر هذه المعرفة، بل قد أحضر قائفاً وأطلعه على أسامة وأبيه زيد بن حارثة رضي الله عنهما وهما مضطجعان، وغطاهما الرسول ﷺ وأقدامهما بادية من الغطاء، حيث كان أسامة أبيض البشرة بخلاف والده، ولهذا دار اللغط حولهما.

"عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ قائف والنبيُّ ﷺ شاهدٌ وأسامةُ بن زيد وزيدُ بن حارثةَ مُضْطَجعان فقال: إن هذه الأقدامَ بعضُها من بعضٍ. قال فسُرَّ بذلك النبيُّ ﷺ وأعجَبَه فأخبر به عائشةَ".[١]

---

(١) البخاري، فضائل أصحاب النبي ١٧.

٧. وظيفة الإرادة

إننا لا ننظر إلى إرادة الإنسان على أنَّ لها وجوداً؛ وهذا ما يعتقده أهل السنة والجماعة الذين يمثلون معظم عقيدة الأمة. فنحن نعتقد أن كل عضو من أعضائنا موجود فعلاً ومخلوق بخلق الله له. فمثلاً: لي رأس، فهو موجود، وقد خُلق من قبل الله. ولي أنف وهذا أيضاً مخلوق من قبل الله. ولي رجلان، ولي ذراعان، ولي عينان وهكذا جميع الجوارح والأعضاء خلقت من قبل الله تعالى. أما الإرادة فلا يمكننا أن نعبّر عنها بنفس العبارة. نعم، إن لنا إرادة، وهذا صحيح، ولكن ليس لها وجود خارجي فهي ليست مخلوقة، ولهذا لا يمكننا أن ننظر إلى إرادتنا أنها موجودة. فالأشياء غير الموجودة هي التي لم تُخلق، إلاّ أنها معلومة في علم الله سبحانه؛ أي أن لها وجوداً علمياً، ولكن لم تتعلق بها الإرادة والقدرة الإلهيتان. ولو كان الأمر خلاف هذا النظر؛ أي لو كان للإرادة وجود خارجي -كما لأعضائنا- فالأمر يؤول إلى الجبر. فلو كانت إرادتنا مخلوقة كخلقة أعضائنا حيث إننا لم نخَيّر ونُسْأل في ذلك؛ فما كان لفعل من أفعالنا أية مسؤولية، وما كان لأحد أن يطلب ثواباً على حسناته، إذ لم يكن له بدّ من ذلك، فلا خيار له بين الحسنات والسيئات. علماً أن الأمر ليس هكذا. فإرادة الإنسان إذن لم تخلق بذاتها خلقاً، ولم توجد إيجاداً، بل أعطي لها وجود اعتباري، كما للخطوط الهندسية وجود اعتباري وفرضي. فإرادة الإنسان وجزؤه الاختياري لهما وجود اعتباري فرضي، أي لا يمكن أن يقاس أو يوزن وجود مثل هذا بأي مقياس أو ميزان. وهكذا فالإرادة تملك وجوداً نسبياً إضافياً لا وزن له ولا ثقل، إلاّ أنها شرط عادي لإجراءات الله في خلقه، وعندما يفعل الإنسان ما يخصّه -ميلاً أو تصرفاً- فإن الله سبحانه يخلق له الأداة التي تمكنه من أداء الفعل الذي يريد. ومن هنا فالإرادة كسبت أهمية عظيمة لارتباطها بفعل الخلق -سواء بالميل أو التصرف-، بالرغم من أن هذا الميل أو التصرف ليس لهما وجود خارجي بالذات. ولنمثل لهذا الأمر بمثال:

ما نجده في أيدينا من مخطط وتصميم لبناء ما لا تأثير له بأي حال من الأحوال في إنشاء البناء. فلو حملتم خريطة البناء بتصميمها ومخططها ليل نهار ووضعتموهما نصب أعينكم، فلا يؤثران في إنجاز البناء، أي لا قيمة ولا أهمية للخريطة والتصميم من هذه الناحية. ولكن ما إن تباشروا فعل البناء، فالتصميم والمخطط يحوزا الأهمية؛ لأن فعل البناء لا يمكن إلاّ بوجود ذلك المخطط. فإرادة الإنسان شبيهة بهذا المخطط والتصميم -خارطة البناء- فهي عبارة عن خطوط افتراضية. وما نعبّر عنه بـــ"الجزء الاختياري" أو "الإرادة الجزئية" هما مسمى هذا المخطط أو الخطوط الافتراضية. أما تحقيق هذا المخطط فعلاً وإيجاده، فهو بخلق الله سبحانه له. ومما يلاحظ أن خلق الله يجري وفق هذا المخطط. وفي الحقيقة أن منبع المسؤولية مناط بهذه الإرادة.

وعلى الرغم من أن إرادتنا ليست لها قيمة أو أهمية تذكر، لأن الله سبحانه هو خالق أفعالنا فهو يفعل فعله وفق هذا المخطط تحت ستار الأسباب والمسبَّبات... فالحسنات التي أصبحنا سبباً لخلقها سنكافأ عليها، والسيئات نعاقب عليها. ومن هنا يشاهد أن نتائج عظيمة وذات أهمية تستند إلى هذه الإرادة التي هي فرضية، نظرية، وشرط عادي. لذا لا جبر على الإطلاق. بل جبر مشروط. فالخالق هو الله سبحانه، إلاّ أنه جعل إرادة الإنسان شرطاً عادياً لخلقه. فعلى الإنسان أن يفكر ملياً في هذه النقطة ويضع موازنة بين القدر والإرادة. وفي الحقيقة أننا ذكرنا إحدى المسائل المعضلة للقدر، لذا نحاول أن نوضح الموضوع ببعض الأمثلة:

هب أنكم لمستم زراً لِمَكِنَة كهرباء عظيمة، علماً أن غيركم قد هيأ هذه المكنة بنظام دقيق، بحيث إن مجرد مس زرها يجعل المكان كله غارقاً في النور. فالعمل الجزئي الذي قمتم به والنتيجة العظيمة التي ظهرت لا تشاهد بينها علاقة معقولة. فليست هناك علاقة معقولة بين السبب والنتيجة، كما هو الحال في معجزات الأنبياء.

ويمكن أن نقيس هذا بالأمور المتعلقة بعالمنا المادي، فانظر إن شئت إلى اللقمة التي تضعها في فمك وانظر إلى نتائجها في الجسم. فأنت تقول: "أكلت الطعام". ولكني أقول: "لا، لم نأكل الطعام وإنما الله سبحانه أطعمنا". وربما تقبل قولي هذا من قبيل التقدير والاحترام، إلاّ أننا إذا دققنا في المسألة نجد أن قولي هو الصحيح. كيف ذلك؟ فلننظر:

إننا نقرّب اللقمة إلى فمنا، فمَن الذي أعطانا إياها؟ وما المراحل التي مرت بها حتى أصبحت مستساغة للأكل؟ وكيف أصبحت الشمس لها طباخة؟ وما الشروط التي دفعت الأرض لتتهيأ لإخراجها هكذا؟.. وبماء مَنْ سقيتموها، وبهواء مَنْ جعلتموها تتنفس؟.. الخ من الاستفسارات..

ثم ما إن تقربوا اللقمة إلى الفم حتى تجري فيها العمليات، وأنتم لا علم لكم بها ولا دخل لكم فيها ولا خبر لكم عنها. فلو حاولتم إقامة تلك العمليات بأنفسكم وإحضار ما يؤكل بإرادتكم فلربما تنسون أموراً كثيرة وعمليات جليلة. فربما تعضون لسانكم وتدفعون طعاماً غير مهيأ إلى المعدة ومنها إلى الأمعاء.. بينما لقمة الطعام هذه حالما تدخل الفم، بل ولمّا تدخل وإذا اللعاب يسيل من الغدد، فتلك الإفرازات تؤدي عمليات مهمة تختلف حسب نوع الطعام. فهي تفرز إفرازاتها وفق نوعية الطعام وكيفيته.. ولا شك أن وظيفة المعدة أعقد من هذا؛ فهي بدورها تؤدي وظيفتها على أتم وجه، ثم تتولى الأمر الإثني عشري وإفرازات البنكرياس والكبد... وهكذا تؤدي كل منها ما عليها من الوظائف، حتى أن الكبد وحدها تؤدي ما يقرب من ثلاثمائة وظيفة. فكل يؤدي ما عليه بصمت وسكون ودون صخب ولا ضجيج. حتى أننا لا نشعر به ولا نعلمه.. ثم تتسلم الأمعاء المهمة فتؤدي دورها على أفضل وجه، حيث الهضم والامتصاص بزغاباتها التي تنقل الغذاء المهضوم إلى الدم، وبجانب هذا تصفية المواد الضارة وطرحها إلى الخارج، والتي تتم في الكلية التي يتناوب العمل فيها بين الراحة وأداء الوظيفة، حيث تدع نصف عمالها عمالاً إحتياطيين والنصف الآخر في عمل دائب.

والآن وضعنا اللقمة في فمنا، فكل ما يجري عليها من عمليات من البداية إلى النهاية، لا دخل لنا فيه، حتى لو عرفناه معرفة تامة. فالله سبحانه وحده هو خالق جميع هذه الأفعال. لذا نكرر السؤال فنقول: أيّهما صحيح: "أكلتُ الطعام" أم "أطعمني الله سبحانه"؟ إلاّ أننا نسلك في تعابيرنا المسلك المجازي فنقول: "أكلنا الطعام"، إلاّ أننا إذا استعملنا الكلمة بمعناها الحقيقي علينا أن نقول: "أطعمنا الله سبحانه".

وهكذا إذا ما نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية نجد أنه لا فرق كثيراً بينها وبين أفعالنا التي نؤديها بإرادتنا. ولهذا شبّهنا المسألة -من جهة- بالمعجزة، حيث إن "وجه الشبه" بين المسألتين هو عدم وجود علاقة معقولة بين العلة والمعلول؛ أي عدم وجود تناسب العلية بينهما، وهذا نشبّهه بالآتي:

هناك نملة صغيرة بجانب قصر عظيم، فلو قال أحد: "إن هذا القصر بَنَتْه هذه النملة". هذا الكلام لا يمكن أن يُصدّق لمنافاته قاعدة "تناسب العلية". فالمعجزات التي أظهرها الأنبياء عليهم السلام هي من هذا القبيل، ولهذا تكون دليلاً على نبوتهم، أي نرى أنه لا يمكن صدور مثل هذه الخوارق من يد البشر؛ لذا نضطر إلى القول -وهو كذلك- أن هذه المعجزات تعطى لأولئك الرسل من قِبَل الله سبحانه. وبناء على هذه الأمور، فإن أفعالنا المبنية على إرادتنا الجزئية -وهي كخط فرضي- شبيهة بهذا الأمر.

فمثلاً: "انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين فقال رسول الله ﷺ أشهدوا".[1] وأصابع تلك اليد المباركة تتحول إلى عشر عيون يتفجر منها الماء: "قال أنس رضي الله عنه : فجعلت أنظر إلى الماء ينبع من بين أصابعه".[2] فكما لا يمكن إسناد هذه النتائج إلى ما يشبه السبب ظاهراً، كذلك لا يمكن إسناد جميع أفعالنا المبنية على إرادتنا إلى أنفسنا. فالفاعل في الحالتين هو الله

---

(١) مسلم، صفات المنافقين ٤٣-٤٧؛ البخاري، المناقب ٢٧.

(٢) البخاري، الوضوء ٣٢،٤٦، المناقب ٢٥، الاشربة ٣١؛ مسلم، الزهد ٧٤، فضائل ٤-٦.

سبحانه. ويذكّرنا هذا بالآية الكريمة: ﴿وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(الصافات: ٩٦). والإيمان بهذه المسألة من ضروريات الدين. ورسولنا الكريم ﷺ قد أشار إلى هذه الضرورة، وشبّه الذين يزلّون إلى الفكر الاعتزالي بأنهم مجوس هذه الأمة. فقال: "إنَ لكل أمة مجوسًا ومجوسُ هذه الأمة الذين يقولون لاَ قدرَ".[1] ذلك لأنهم لا يسندون الخير والشر إلى الله سبحانه، أي أن العبد خالق لأفعاله.

كان يطلق تعبير "القدرية" في أول الأمر على القائلين بالجبر، ثم أُطلق على منكري القدر، وهو الموافق لمعنى الحديث الشريف. وهكذا وجد الاسم صاحبه الحقيقي. وفي الوقت الحاضر يطلق على مذهب المعتزلة الذي حافظ على مفهومه السابق مع فروق طفيفة.

وبجنب هذا هناك إنكار لإرادة الإنسان الذي هو مذهب الجبرية. وهذا الفكر أيضاً غير صائب، كما وضحنا بجلاء. أما مذهب أهل السنة فإنه يمثل الطريق الوسط المصون من الإفراط والتفريط والذي أخذ الحقيقة من الطرفين وهو أن الله خالق لأفعالنا، أما السائل والطالب فهو نحن، لذا تقع المسؤولية علينا.

٨. مشيئة الله وإرادة الإنسان

على الرغم من كون الإنسان صاحب اختيار وإرادة، فلله الخلق والأمر. فلا يحدث شيء قطعاً ولا يرد شيء إلى الوجود أصلاً ما لم يصدر الأمر منه تعالى. فلولا مشيئته لم يكن زمان ولا مكان؛ ولو لم يرد دوام ما أوجده لأصبح كل شيء هباءً منثوراً.

فهو الذي قلّد جواهر الوجود على جيد العدم، وهو الذي فتح أبواب السماء على ظلمات العدم، وهو الذي جعل الأكوان كلها كالكتاب

---

(١) المسند لأحمد بن حنبل، ٨٦/٢، ١٢٥، ٤٠٦/٥؛ ابن ماجة، مقدمة ١٠.

وكالمعرض ونوّرها ليُقرأ الكتاب ويُشاهد المعرض. فالعيون تتفجر بأمره، والسيول تجري بأمره، والجبال تتصدع وتسقط بأمره أحجاراً تتحول إلى تراب، بفتح صدره للبذور والنوى، والسهول والوديان تتسربل بحلل سندسية بأمره، حتى تغرى نظر الأرض والسماء، وتتحول الأرض من أقصاها إلى أقصاها جناناً وارفة بنسائم أوامره، فتشحن البساتين والحدائق بالثمار والفواكه، وتغرد الطيور والطويرات بأمره.. بل حتى يتكلم كل كائن حي وغير حي، كل بلسانه، حامداً، داعياً، سائلاً منه تعالى.

فهذا الكون الواسع الذي لا يُرى له ساحل، لا يمكن أن يدّعي أحدٌ تملكه، فما هذه الأرض بعظمتها، بأنهارها وسيولها وبحارها إلاّ قطرات من رحمته تعالى، وما جميع الموجودات الحية وغير الحية إلاّ ذرة من خزائن ثروته. فنعمه تعالى لا تعدّ ولا تحصى ولا تسعها الأرقام. فله وحده الشكر والحمد والمنة تجاه هذه النعم السابغة على الجميع. وله التصرف والتدبير الواسع المشاهد في كل جزء من أجزاء الكون والإنعامات التي أسبغها على كل موجود، وكذا له وحده جميع الحسنات والخيرات وجميع المباركات والفيوضات التي تحققت بعمل الإنسان. فإفراغ الطمأنينة إلى القلوب المؤمنة وإعطاء العلم والدراية لعقول روّاد الحقيقة، وإسباغ الأخلاق الفاضلة والحكمة السديدة عليهم، وهداية الرؤوس العاشقة للسجود له... يخصه وحده تعالى. وكل سعي وعمل لمن لا يعرف عنايته ولا يقدرها حق قدرها عبث وهباء، بل سراب زائل كل ما لا تضفى عليه عنايته تعالى. فالأعمال تتحول عبادات بالفكر في رضاه. والعبادات هذه تكبر وتتسع برعايته وصيانته لها. حتى تصبح وسيلة نجاة الذين كانوا السبب في إقامتها وأدائها. وبخلاف هذا لا يمكن الوصول إلى شيء ولا المرور على الصراط المستقيم، أي خلاف هذا خيال لا حقيقة له. "أنا الذي عملت كذا، أنا نظمت ذاك، أنا الذي وجهت فلان.." هذه الكلمات التي تنم عن الفخر والغرور، مزالق شيطانية حتى مجرد التفوه بها.

إنه الله العلي القدير يدفع أصغر الأشياء لإنجاز أعظم الوظائف، وهو الذي دمّر بنملة قصْر فرعون. إن راية ملكه ترفرف في كل زاوية من زوايا الكون. ويا خسارة من لا ينضوي تحت رايته، أدامها الله على رؤوسنا وأظلنا بظلها. نعم، إن الأرض والسماء تحت حكمه، ونحن بأيدينا وأرجلنا وبصرنا وسمعنا ولساننا وقلبنا ووجداننا... ملكه ﷻ. وما هذه الجوارح إلاّ قطع لحم في ملكه الواسع، فهي وسائل شاعرة صغيرة جداً.

فكما أن هذا كله له وحده سبحانه، فإن جميع ما يرد منه من ثمرات وفوائد تخصه وحده سبحانه؛ إذ كيف يمكننا أن نقول: "لساننا، فمنا، عيننا، أذننا.. لو لم يمنحنا ﷻ هذه الجوارح والمشاعر والحواس، ولو لم يرتّب ثمرات على هذه الحواس والمشاعر، كم كانت حصتنا من تلك الثمرات التي ندّعي تملكها؟. فالدنيا كلها بأمره تدور، والأرض كلها تمتلئ بجود كرمه وتفيض". لذا فإن إسناد الوجود إلى غيره تعالى "كفر ما بعده كفر" حتى أنه لا يغتفر؛ والتعامي عن يد إحسانه وراء كل إحسان شرك مشين.

فيا ذا الرحمة الواسعة التي يطمع فيها حتى الشيطان! ارفع الغشاوة عن أبصار الذين يقولون: "أنا.. أنا.." وأظهر تجلياتك للمستحسنين المعجبين أمام إجراءاتك وأفعالك، واملأ القلوب الخاوية بمعرفتك.

٩. القدر في ضوء الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة

لا يكون تناول مسألة القدر موافقاً لمذهب السنة والجماعة ما لم تؤخذ في ضوء الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة -التي سنذكرها- وإلاّ لا ننجو من الإنحراف إلى مفاهيم الاعتزال أو الجبر. ولهذا نحاول تحليل الآيات والأحاديث التي تتعلق بالموضوع في هذا القسم من البحث.

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾(الحديد: ٢٢).

نعم، إن كل شيء قد سُجّل قبل أن يكون، ولا يجري شيء إلاّ وفق ما سُجّل. إن الطريق المحمديّ يلزم هذا الاعتقاد. أما الانحرافات فهي زلاّت وضلالات حسب صغَرها وكبرها.

لقد ذكرنا الآيات الكريمة في مستهل الكتاب ونورد الآن بعضاً من الأحاديث الشريفة المفسّرة لها:

١) "يروي عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ قال: كتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخلائق قبل أن يَخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة. وعرشُه على الماء".[١]

والحقيقة أننا لا نعلم ما القياس أو الميزان الذي توزن به هذه الخمسون ألف سنة؛ ولربما يكون قياساً بزمان دنيانا خمسين ألف سنة أو خمسين مليون سنة، وربما هي كناية عن الكثرة، فلا نجزم بشيء. نعم، فلقد قُدّر وعُيّن كل شيء قبل أن تُخلق السموات والأرض وقبل خلق ثمرت الكون الإنسان بخمسين ألف سنة.

أما "الماء" الوارد في الحديث فربما هو "العماء"* وربما هو "الأثير". أي أن عرش الله كان على الأثير الذي هو أصل مادة أجزاء الذرة. وربما الموجودات كانت على شكل وجودات أثيرية. ولا علم لنا بأي شكل من الأشكال ولا/ ولن يمكننا ذلك، لأننا وأبانا آدم لم نكن موجودين بعدُ، بل الكون برمته لم يكن موجوداً.

٢) أودع عبادة بن الصامت أمانة "الإيمان بالقدر" ولده قائلاً: "يا بنيّ، إنك لن تجد طعم حقيقةِ الإِيمان حتى تعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئَك،

(١) مسلم، القدر ١٦.

* العماء: السحاب. وقد قيل أن ذلك (العمى) مقصور وليس ممدوداً. والعمى إذا كان مقصوراً فمعناه: لا شيء ثابت. لأنه مما عمي عن الخلق لكونه غير شيء. أي (كان قبل أن يخلق خلقه و لم يكن شيء غيره) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٤٠/٤ هامش. (المترجم)

وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "إنَّ أول ما خلق اللّه تعالى القلمَ، فقال له: اكتبْ فقال: ربِّ وماذا أكتبُ؟ قال: اكتب مقادير كلِّ شيء حتى تقوم الساعة". يا بنيَّ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من مات على غير هذا فليس منِّي".[1]

٣) الحديث الذي يرويه عبد الله بن عباس له أهمية بالغة لموضوعنا "القدر" والذي يفسّر الآية المذكورة آنفاً.

"عن ابن عباس قال: كنتُ خلف النبي ﷺ يوما فقال: يا غلامُ، إني أعلمك كلمات، احفظِ اللّهَ يحفظك، احفظِ اللّهَ تجدْه تُجاهك. إذا سألت فاسأل اللّهَ، وإذا استعنتَ فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك بشيء إلا قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليكَ، رُفعت الأقلام وجَفّت الصحفُ".[2]

أي أعط أوامر الله حقها، كي تكون مرسِلاً إلى العالم الآخر ما ينفعك. وإذا ما سألت شيئاً فلا تسأل أحداً غير الله، ولا تتذلل لغيره تعالى، ولا تخضع لغيره ولا تراجع غيره، لأن الذي يحل مسألتك هو الله وحده. إذنْ فإذا طلبت فاطلب منه، فلو طلبت ممن تريد أن تطلب فالنتيجة تؤول إليه وحده فلا يقضي مسألتك إلاّ هو سبحانه؛ لذا لا تشتت جهدك سدًى بالوسائط والوسائل الموجودة بينك وبينه تعالى، بل ارفع جميع ما بينك وبينه تعالى وتوجه إليه بحوائجك. وافعل هذا قولاً وعملاً، واعلم أن جميع الوسائط عاجزة مثلك. فهو وحده سبحانه القادر على إنجاز ما تريده وتطلبه. فمقاليد السموات والأرض بيده، فلا مقدّر لشيء ولا معيّن له إلاّ هو. فهو الخالق وحده، وهو الذي يُضحك ويُبكي، يعزّ من يشاء ويذل من يشاء. بل حتى لو تسابق الناس جميعهم لينفعوك أو ليسعفوك

---

(١) أبو داود، السنة ١٦.

(٢) الترمذي، القيامة ٥٩؛ المسند لأحمد بن حنبل، ٢٩٣/١، ٣٠٣-٣٠٧.

وينقذوك مما أنت فيه من بلاء، فأعمالهم الحسنة جميعها ضمن تقديره جلّ وعلا. لأن القلم قد كتب ما كتب، فجفّت الصحف على ما كتب، أي لا يتغير ولا يتبدل ما كُتب فيها.

إن هذا الحديث الشريف "الذي هو من جوامع الكلم، يفهّم به الرسول الكريم ﷺ حَبْرَ الأمة وعلاّمتها عبدَ الله بن عباس أعمق مسائل القدر.

وهكذا يكون إدراك "المنتهِي" للقدر.

نعم، إن القدر مسألة وجدانية وحالية، يشعر بها كل إنسان بجميع هذه الحقائق المذكورة في وجدانه، بل يطفح بها. حتى يصح القول: إن موضوع القدر هو أكثر المسائل التي ركّز عليها الرسول الكريم ﷺ. والكتب الستة زاخرة بمثل هذه الأحاديث. فينبغي أن يُبحث موضوع القدر في ضوئها إذ يستحق هذا الموضوع أن يُبحث بحثاً مستفيضاً بل يلزم ذلك.

فالمجوس يعتقدون بوجود قوّتين متغايرتين، إحداها للخير والأخرى للشر. فهذا النمط من الإيمان يجعل الله ﷻ في صراع مع الشيطان، وعدم مداخلة أحدهما بفعل الآخر (حاشا). غير أن الإسلام على النقيض من هذه العقيدة كلياً، بل أعلن الجهاد على أمثال هذه الأفكار. نحن نؤمن بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له في ذاته وفي أفعاله، فلا رب سواه، يتصرف في ملكه كيف يشاء، ولا سلطان إلاّ هو، والقوة كلها بيده.

فهذه الحقيقة نفهمها من الذكر الوارد في السنة، الذي يُقرأ صباح مساء: «لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».[1]

فنحن نعتقد في ضوء هذا الحديث الشريف بتوحيد الأُلوهية وتوحيد الصفات الجليلة وتوحيد الأفعال الحكيمة. وتفويض كل أمر إلى الواحد الأحد قضية مهمة جداً في إيماننا بل يشكل لبّه وخلاصته.

---

(١) البخاري، التهجد ٢١، الأذان ١٥٥.

٤) ولننظر إلى المسألة في ضوء ما يرويه الإمام علي رضي الله عنه:

"عن علي رضي الله عنه كنا في جنازة في بَقِيع الغَرْقَدِ. فأتانا رسولُ الله ﷺ فقعد، وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرَةٌ. فنكّسَ فجعلَ ينكُتُ بمِخْصَرتِه ثم قال: "ما منكم منْ أحد ما مِنْ نفْسٍ مَنْفُوسة إلا وقد كَتب اللهُ مكانَها مِن الجنةِ والنار وإلا وقد كُتبتْ شَقيّةً أو سعيدةً" قال فقال رجلٌ: يا رسول الله! أفلا نَمْكُث على كتابنا، ونَدَعُ العَمَلَ؟ فقال: "مَن كان مِن أهل السَّعادةِ، فسيَصيرُ إلى عمَل أهل السعادة ومَنْ كان من أهل الشَّقاوة، فسَيَصيرُ إلى عمَل أهل الشَّقاوة" فقال "اعْمَلوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ،[١] أمّا أهلُ السعادة فيُيَسَّرون لعمل أهل السعادة. وأما أهل الشقاوة فييسَّرون لعمَل أهل الشقاوة". ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾(الليل:٥-١٠)».[٢]

نعم، فمن خُلق للجنّة فسيمتلئ قلبه بنشوة العبادة، وينفر نفوراً شديداً من النواهي، لذا يُيسّر له طريق المسجد ويُعسّر عليه طريق النواهي.

نعم اعملوا، فكل ميسّر لما خُلق له، فطريق الجنة يمر من المسجد واتباع الرسول ﷺ، والذي لم يسجد لله سجدة ولم يجعل قلبه ووجدانه مرآة عاكسة لأوامر خالقه تعالى لا يقال له أنه في طريق الجنة. أي إن كان الإنسان من أهل السعادة فهو في النتيجة يقوم بأعمال تؤهله للجنة، وإن كان من أهل الشقاوة من حيث النتيجة فيقوم بأعمال يستحق بها النار. ولهذا كان الرسول ﷺ يقرأ صباح مساء «اللهم أحسِنْ عاقبتَنا في الأمورِ كلّها وأجِرْنا من خِزْيِ الدنيا وعذاب الآخرة».[٣] ونجد أنه ﷺ يورد آيات

(١) وفي رواية زيادة "لِما خُلق له".

(٢) مسلم، القدر ٦-٨. البخاري، تفسير (٩٢) ٧، القدر ٦، التوحيد ٥٤.

(٣) المسند لأحمد بن حنبل، ١٨١/٤.

من سورة الليل[1] دليلاً على قوله الكريم، مما يذكّرنا بالمعاني الجليلة الآتية:

إن من بذل ماله ونفسه في سبيل الله وضَحّى بما يملك في تلك السبيل يدخل دائرة التقوى وينتفع من قوانين الله، أي سيمتلئ قلبه بالتقوى والتوقير بل يطفح بهما، فيلتجئ إلى حمايته تعالى، ويعلم أن ملاذه هو الله ﷻ. أي إذا وثق الإنسان بالله في شؤونه كلها واعتمد عليه واستند إليه مصدّقاً بأسمائه الحسنى وكل ما هو معلوم بالضرورة من الإيمان، فالله سبحانه ييسّر له الصراط السوي ويبلغه الهدف كما يبلغ السيل الجاري إلى مصبّه. وهو بدوره يتلذذ بعمله في الصلاة والزكاة والحج والجهاد. حتى ينظر إليه من لا يدرك نشوة هذه الأمور إما بحيرة وإعجاب أو يقولون: إنه "مجنون". فتعجب الألسنة من عدم مبالاته بالموت ومن سخائه الفائق، بل حتى أعماله اليومية وتركه الأذواق الشخصية تعدّ من الخوارق. كل ذلك لأنه تعالى قد يسّر له السبيل إلى الأفضل.

ولكن بخلاف هذا، أي إذا أصبح الإنسان بخيلاً لا يبذل شيئاً ولا يعطي شيئاً لأحد، فليعلم أنه لا يُعطى لمن لا يعطي، فلو أعطى لأعطاه الله.. تُرى ماذا يعطيه الله سبحانه؟. يعطيه الحسنى.. العاقبة الحسنى. فمن لم يعطِ واستغنى، أي شعر في نفسه بوجوده واستغنى عن الله، بدلاً من الاعتماد عليه، أي اغتر بنفسه كقارون الذي قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: ٧٨) وعدّ الذهاب إلى المسجد رجعية مستحقراً أهله مكذباً بالحسنى، أي منكراً المسمى بتلك الأسماء وهو الله سبحانه، غير مصدق بالرسول الكريم ﷺ الذي هو بؤرة تجليات الأسماء الحسنى، غير مكترث بالقرآن الكريم الذي هو الترجمة الأزلية لتجليات الأسماء الحسنى. فيُيسّر هذا الإنسان للعسرى، وربما تكون له أحياناً حياة دينية كالصلاة والصوم، ولكن يؤديها ضجراً متكاسلاً غير راغب في مغادرة الفراش لصلاة الصبح، وبمرور

(١) انظر: الايات الكريمة (٥-١٠) منها.

الزمن يترك الجماعة والعبادة. بل قد يَرى نفسه كالمغشي عليه إذا ما وجد أمامه أمراً إلهياً فيزيغ بصره حتى يعمل بخلاف ما أُمر، فيسأم ويسخط لدى أقل تكليف إلهي، إذ هو مُيسّر للعسرى، مثلَه كمثل الصاعد إلى الجبل المرهق بحمل ثقيل، كما تصفه الآية الكريمة ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾(المدثر: ١٧).

نعم، هناك من يجد منجم الفحم ويبحث عنه دوماً، وآخر يجد منجم الفضة وآخر النحاس وآخر الذهب، وهناك الكثيرون يغرقون في مجاري المياه القذرة.

إن الذي ييسر الطريق هو حفظ القلب على صحته، والإلتزام بالصدق والتوجه التام إليه تعالى، والبذل في سبيله وانتظار الإستجابة منه تعالى والإيمان بالأسماء الحسنى وعدم الاستغناء عنه تعالى وعدم الإغترار بإرادته الشخصية الضعيفة وعلمه القليل، مع الاعتقاد بأن كل شيء منه تعالى مع التضحية بماله ونفسه في سبيله.. نعم! إن هذا مما ييسّر الطريق. وبخلاف هذا يعني جعل الطريق شاقاً صعباً لا يمكن اجتيازه.

وفي رواية «قام سراقة بن مالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيت أعمالنا التي نعمل أمأخوذون بها ثم الحافر خير فخير وشر فشر أو شئ قد سبقت به المقادير وجفت به الاقلام؟ قال رسول الله ﷺ: يا سراقة قد سبقت به المقادير وجفت به الأقلام. قال فعلى ما نعمل يا رسول الله؟ قال: اعمل يا سراقة فكل عامل ميسر لما خلق له، يا سراقة الآن تجهد".[1] وفي رواية "فقال رجل من القوم ففيم العمل يا رسول الله؟ فقال يعمل كل قوم ما خلقوا له أهل الجنة بعمل أهل الجنة وأهل النار بعمل أهل النار. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله أرأيت أعمالنا هذه أشيء نبتدعه أو شيء قد فرغ منه؟ قال على شيء قد فرغ منه. قال فالآن نجتهد في العبادة".[2]

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني، ١٤٤/٤.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني، ٣٢٦/٧.

فبعد هذا نجد الصحابة قد بَلَغوا في العبادة مبلغاً، حيث شمّروا عن ساق الجد، فَعَبَدوا الله ليلا نهارا، أي إنهم أدركوا أن الإنسان أيّما طريق سلكه وصل نهايته، بمعنى مَن سار وصل.

نعم، هكذا كان فَهْم الصحابة للقدر. فهذا الإيمان لا يدفع إلى الكسل بل إلى السعي المتواصل. حيث إنهم أدركوا أيَّما طريق نسلكه فإن نتيجة ذلك الطريق، إذن قد قُدّرت لنا. فكانوا يسعون دائماً لبلوغ نهاية ذلك الطريق. إذاً فيا ويح من لا يكون في طريق المسجد، ويا ويح من لم يسجد لله سجدة ولم يسلك سبيل المؤمنين، ويقضي أوقاته وأعياده في المقاهي والملاهي والحانات. فطريقهم هذا طريق الضلال وينتهي إلى ﴿سَقَر﴾(المدثر: ٢٦-٣٠).

فحمداً لله حمداً كثيراً لما يسّر لنا طريق الإسلام ووضعنا في المساجد كما يضع الندى على الأوراق الطرية. وجعل قلوبنا مرآة عاكسة لأنوار القرآن الكريم شمس الشموس، وأنعم علينا بفضله وكرمه اِتّباع رسوله الكريم ﷺ نسأله تعالى تمام النعمة ودوام النعمة والشكر على النعمة.

٥) يروي عبد الله بن عمرو بن العاص قال :«خرجَ علينا رَسُولُ الله ﷺ وفي يدهِ كتابان فقال: "أتَدْرون ما هذان الكتابان؟" فقلنا: لا يا رسولَ الله إلاّ أنْ تُخبرنا. فقال لِلذي في يدهِ اليُمنى: "هذا كتابٌ من رب العالمينَ فيه أسماءُ أهلِ الجنّة وأسماءُ آبائِهِمْ وقبائلِهِمْ ثُم أُجملَ على آخرهِمْ فلا يُزادُ فيهم ولا يُنقص منهم أبدا". ثُمَّ قال لِلذي في شِماله: "هذا كتابٌ من رب العالمينَ فيهِ أسماءُ أهلِ النَّارِ وأسماءُ آبائهم وقبائلهم ثُمَّ أُجملَ على آخرهِمْ فلا يُزاد فيهم ولا يُنقصُ منهم أبدا". فقال أصحابُهُ: ففِيمَ العمَلُ يا رسولَ الله إنْ كانَ أمرٌ قد فُرِغَ منه؟ فقال: "سَدِّدوا وقارِبُوا فإنَّ صاحبَ الجنَّةِ يُختَم لهُ بعمَل أهل الجنّةِ وإنْ عمِلَ أيَّ عمَلٍ، وإنَّ صاحبَ النَّارِ يُختم لــه بعملِ أهلِ النــارِ وإنْ عمِلَ أيَّ عملٍ". ثم قال رســولُ الله ﷺ بيدَيْه فنبذَهُما ثم

قال: "فرَغَ ربُّكم من العباد فريقٌ من الجنـــة وفريقٌ في السّعير".[1]

سأحاول توضيح هذه المسألة بحادثة عشتُها فعلاً:

كنت على رأس مَن أُحبه وهو يحتضر من مرض التشمع الكبدي الذي ألمّ به، فكان يتلوى من شدة الألم، وقد انتفخ لسانه بحيث لا يدور في فمه إلاَّ أنه كان يردد شيئاً، قربتُ أُذني إليه منصتاً فكأن قلبه يقول: "لا إله إلاَّ الله"، بدلاً من لسانه؛ إذ أمضى حياتَه بنـــزاهة وطُهر وكان في تلك الأثناء يعيش عيش الغرباء، وتعرّض في الغربة لمرض يحرزه مرتبة الشهادة، ولسان محبيه رطب بالدعاء له، وهم يحيطون به. فكأن الله سبحانه قد هيّأ له جميع الأسباب لإدخاله الجنة. إذ قد مَرِضَ في أثناء أدائه لفريضة الحج، وبعد عودته رقد في مستشفى "إزمير" قبل لقائه بأقربائه. إن فوزاً عظيماً كان ينتظره رغم أن ظاهره ينم عن أنه مظلوم. وأنا شخصياً أشهد على إيمانه من معرفتي بظاهر حاله، وعلى استعداد بالشهادة له يوم القيامة إن سمح لي ذلك. نعم، إن كان الشخص من أهل الجنة فالله سبحانه يختم أعماله بعمل أهل الجنة. بينما لو كان الأمر خلاف ذلك فالعاقبة تكون خلاف الأولى. حفظنا الله من خيبة العمل ورزقنا عمل أهل الجنة.. آمين.

لقد تطرقنا إلى إرادة الإنسان وخلق الله للأفعال. وفي الحقيقة أن الذي نطلق عليه "الإرادة" لا نعلم كنهها، بل كيفيتها مجهولة بالنسبة لنا، إذ هي موجودة وجوداً نسبياً إضافياً، ولكن هذه الإرادة أصبحت شرطاً عادياً لخلق الله سبحانه، لذا كسبت أهمية من هذه الجهة. ولكن ما وظائف الإرادة ودورها في الأفعال الصادرة من الإنسان؟ فهذا الأمر لم يُجزم به بأبعاده جزماً قاطعاً. بيد أن الذي نقرره هو: أن الله سبحانه يدخلنا الجنة بحسناتنا، ويسوقنا إلى النار –حفظنا الله منها– بسيئاتنا. فكما يكون الأبرار بإرادتهم أهلاً لدخول الجنة، يدخل الفجار بإرادتهم أيضاً جهنم، كما ورد في سورة الانفطار (الآية ١٣–١٤).

(١) الترمذي، القدر ٨؛ المسند لأحمد بن حنبل، ١٦٧/٢.

ولكن ما عَمَلُ الإنسان في هذه النقطة؟ وما مقدار مداخلته في الخير أو الشر؟ وما مقدار عدّه سبباً في الخلق حيث إن الله هو الخالق؟.. وأمثالها من الأمور والأسئلة نحيلها مضطرين إلى علاّم الغيوب جل وعلا.

ولكننا نقول: إن كتاباً قد سبق، وهذا الكتاب مَرّ بأشكال وأنماط مختلفة. إذ قد قُررت خطة عامة قبل خلق السموات والأرض، ثم استنسخت الخطط الخاصة بكل فرد من هذا الكتاب العام، وعُلّقت مقدرات الأفراد في أعناقهم. إننا لا يمكننا أن نفكر في أنفسنا وإرادتنا خارج الأشياء والحوادث، لذا عندما يُقال "القدر" فنحن موجودون فعلاً مع إرادتنا ورغباتنا في تلك الدائرة نتهاوى مع الأشياء والحوادث، حيث إن كل ما له علاقة بنا يأتي إلى الوجود ضمن الحوادث مرتبطاً بإرادتنا. فرغم أننا لا نستطيع أن نضع مقياساً لتلك الإرادة إلاّ أننا لا نشك قطعاً في وجودها.

فالقدَر هو نظر الله ﷻ إلى الأمور كلها –وبضمنها إرادتنا– بمنظر علوي ورؤيته البداية والنهاية كرؤيته الحال. والقدر بهذا المفهوم لا محل فيه لمفهوم الاعتزال ولا الجبر. بمعنى أنه معلوم ومقدر عنده سبحانه جميع الأفعال المتعلقة بإرادتنا كجميع الأفعال الأُخرى التي لا علاقة لها بإرادتنا. إلاّ أن الأفعال الإرادية –مهما كانت سعتها– قد أُخذت فيها بنظر الاعتبار الإرادة والميل، وقدّرت التقديرات الإلهية وفقها وعلى قدرها.

قلنا إن لله سبحانه كتابات متنوعة، فالأمور التي يسجلها قلمُ القدر في اللوح المحفوظ يستنسخها الملائكة المكرمون بأقلامهم. فهذه الكتب التي يكتبها الملائكة معلقة في عنق كل فرد. أي أن جميع أفعالهم –قبل القيام بها– وجميع تفاصيل حياتهم مكتوبة في هذا الكتاب. أين تنجز وكيف ومتى؟.. ومعلوم أن إرادة الإنسان ليست مفصولة عن هذه الكتابة بل في ضمنها. أي أن جميع الأفعال المكتوبة هناك ينجزها الإنسان بإرادته، ثم يسجل الملائكة الأفعال المنجزة،[1]

(١) انظر سوَر: الكهف: ٤٩؛ الجاثية: ٢٩؛ ق: ١٨؛ الإنفطار: ١١-١٢.

وستتطابق الكتابتان إذا ما قُورِنَتا. فالكتاب الذي كتبه العليم الخبير المحيط بـــ"علمه بكل شيء في الوجود" لا يتناقض حتماً مع الكتاب الذي كتبه الملائكة، حيث إنه قد كتب في الكتاب الأول كل ما سنفعله لأنه معلوم مُسبَقاً في العلم الإلهي. أما الكتاب الثاني فقد كتب في أثناء إنجازنا للفعل. فالكتابان مطابقان تماماً حتى في أصغر حرف. إننا نؤكد المسألة هكذا لئلا نكون سبباً إلى أي فهم غير مقصود من قبَلنا.

لقد كتبتْ إحدى جهات هذه الكتابة على صورة ميثاق وعهدٍ أُخذ منا ونحن في عالم الأرواح وعالم المثال أو عالم الذرات، فنحن نشعر دوماً بانعكاسات هذه الكتابة في وجداننا. فلقد أراد الله سبحانه أن يقرر حكماً فوق الزمان. ونحن قد استجبنا بـــ﴿بَلَى﴾ لهذا الحكم، فالآية الكريمة توضح لنا الأمر:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾(الأعراف: ١٧٢-١٧٣).

فإذن قد أخذ العهد من الإنسان، وهو ما زال في صلب آبائه، بل هو ما زال في حالة الجينات في كروموسوماتهم أو هو بعد يجول في عالم الأرواح ولّما يأت بعد إلى عالم الحيوانات المنوية أو عالم الذرات، وربما أُخذ الميثاق هذا في أثناء نـــزول المني في الرحم وبداية تكوين الجنين بنفخ الملائكة. أي يمكن أن يكون أخذ الميثاق وهو في أحد المنازل التي لا بد أن يمر بها الإنسان، أو في كل منها، والشاهد على هذا هو وجدان الإنسان.

وتُلْمح الآية الكريمة بكلمة ﴿رَبُّكَ﴾ إلى معانٍ عديدة، منها: الذي يربيك، ويسوقك إلى الكمال، وأوجد من الأثير ذرات وجودك، وركب جزئياتك، ومنها مركباتك. وهو الذي خلق من الأم البيضة ومن الأب المني، وهيأ المكان الملائم لنموك ضمن مسيرك في ظلمات متعاقبة. حتى جعلك

تتنفس بهواء الأم في محيط لا هواء فيه، وغذّاك بغذائها، ويدفع فضلات وجودك بدمها، وهو الذي ساقك إلى مرتبة أعلى عليين بعد اجتيازك مراحل معينة، وجعل الحيوانات محصورة ضمن فطرتها. أما أنت فبتربيته جعلك تعرج إليه، وعمّر قلبك بالإيمان كي تكتمل مادةً ومعنى. ونوّر –بعملك الصالحات– ظاهرَك وباطنك، وهداك الصراط المستقيم الذي يوصلك إلى سيدنا محمد ﷺ، وضَمِنَ لك الانضواء تحت جناح تربيته، وفوق كل هذا أنعم عليك بالمضي بخطوات اتباعه وتربيته حتى أبلغك ذروة درجة الولاية... وهكذا يربيك خطوة خطوة، مُظْهِراً ربوبيته لك. فهو الرب الرحيم الذي أخذ منك ميثاقاً في بداية الأمر وأشهدك على نفسه أنه الرب.

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أتشهدون أنني أنا الرب وليس غيري خالق هذه الأحوال والأمور المتداخلة، وليس غيري يقدر على موازنة هذه الأحداث بدايةً ونهاية، وليس غيري خالق هذا الإنسان –ساكن الجنة– من تراب كثيف وأودع فيه استعدادا يمكنه من التقدم على الملائكة.

بمعنى: أيها الناس! اُنظروا إلى أنفسكم من قمة رأسكم إلى أخمص قدمكم هل من خالق غيري يقْدر أن يخلقكم على هذه الصورة؟ هل لغيري قدرة على الخلق كقدرتي فيتدخل في الخلق؟ هل يقدر غيري أن يمنحكم هذا الكمال في الخلقة هذا التقويم الأحسن؟ فهلاّ نظرتم إلى ملامح وجوهكم حيث وضعت فيها من العلامات الفارقة ما تميزكم عن مليارات من البشر بينما الوجه لا يتجاوز قدر كف واحد؟ فمن يقدر أن يخلق هذه المعجزات؟ حتى بصمات الأصابع متميزة في مليارات من الناس... فمن يقدر على هذا التمييز والتفريق؟.. وهكذا بعد ما يذكّر الرّب سبحانه الناس أنه الرّب، يُشهدهم على هذه الربوبية قائلاً: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾(الأعراف: ١٧٢) فأيّاً كان المخاطب بهذا السؤال، الروح، أو الذرات، أو المنيّ، أو الجنين في رحم الأم، أو المادة الأثيرية، فلا يكون الجواب إلاّ: ﴿بَلَى﴾.

إنك أنت الرّب الحق يا ربنا! وليس غيرك الذي يربّينا ويبلغنا الكمال، ونحن نشهد على هذا.

وهكذا تسجل هذه الشهادة، وتدوّن في الوجدان وتقرّ فيه بما لا يمكن محْوَه، وقد أشار الرسول ﷺ إلى هذه الكتابة بقوله: "ما من موْلود إلا يُولَد على الفطرة، فأَبَواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه".[1]

نعم، كل مولود يولد على الفطرة وهو مستعد وجدانياً للإيمان بالله سبحانه. فهو كالصحيفة البيضاء التي لم يُكتب عليها حرف بعدُ، وعلى استعداد لكتابة أنـــزه العبارات، أو أبيات شعر تحير العقول.

إنه يولد هكذا ولكن ماذا يحدث بعد ذلك؟ فمن أقرب الأقربين إليه من أب وأم وعم وخال ومن أبعدهم إليه يؤثر فيه، فيهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه. وإذا استعملنا التعابير المستعملة في وقتنا الحاضر فهم الذين يدفعونه إلى أحضان الشيوعية والماسونية أو الرأسمالية.. الخ. أي أنهم يؤثرون فيه حتى يصرفوه عن دين الله ويسوقوه إلى شتى السبل ويلوثوه.

إن كل صاحب فطرة سليمة يسمع في وجدانه صوت هذه الشهادة على ربوبيته تعالى، ونحن نستشعر بهذا الميثاق في أي صحيفة كان من صفحات وجودنا وكياننا، فنسمعه دوماً في أعمق أعماق أرواحنا، ومن هنا نَعُدّ الوجدان أحد الأسس الكلية الأربعة التي تُعرّفنا بخالقنا، ونقبله دليلاً قائماً وحده على وجوده سبحانه.

نعم، إن الكون كتاب: يعرّفنا بالله تعالى. وكذا القرآن الكريم كتاب: يعرفنا بالله تعالى. وكذا رسولنا الكريم ﷺ دليل ناطق: يعرفنا بالله تعالى.

وهناك كتاب صامت لا ينطق، ولا يكذب، إلاّ أن نداءه يرِد من الأعماق –مثلما يربط "كانت" (Kant) و"برجسون" (Bergson) وأمثالهم

---

(١) البخاري، الجنائز ٩٣؛ أبو داود، السنة ١٧؛ الترمذي، القدر ٥.

من الفلاسفة معرفة الله إلى ما وراء الكتب والأفكار والطبيعة- هذا الكتاب هو الوجدان، هذا الشاهد الصادق الذي رطّب لسانه بحلاوة وطلاوة كلمة: ﴿بلى﴾، وهو دليل واضح على الله سبحانه بحيث من تمكّن منه وأحسّه واستشعر به فلا حاجة له إلى دليل آخر، هذا الوجدان الذي لا يقر له قرار ولا يطمئن إلاّ بالله، فلا يجد السكينة والطمأنينة إلاّ بوجدانه الله تعالى كما هو في معناه.

وهكذا فكل مولود يولد ومعه هذا الشاهد.

ومن هنا فإننا نميل إلى فهم "من عرف نفسه فقد عرف ربه"(١) بهذا المعنى، أي من كان يعرف لغة وجدانه ولسانه فقد عرف ربّه. وقد عبّر عن ذلك "نيازي المصري"(٢) شعراً بما معناه:

"كنت أصول وأجول الفيافي والقفار حاسراً حافياً باحثاً عنه وحده، ولكن ما أن رُفع الحجاب حتى شاهدت أن كل شيء مطوي في وجداني".

إن هذا الفكر قد بلغ الذروة فانتظم وانعقد بأبيات نيازي المصري.. نعم لقد قطع ملايين الأولياء مسافات لا نهاية لها بدلالة هذا الكتاب المشحون بالأسرار "الوجدان".

إن هذا الركن العظيم للطيفة الربانية، الوجدان، حالما ينبعث في قلبنا بهويته التي تحل كل معضلة، إذا بنا نشاهد الجنة تبرز وتهب نفحاتُها حتى ندرك ونشاهد جلوات الحضور الإلهي تتمثل فيه، ونستشعر في الوقت نفسه نفوراً من جهنم ومن كل ما يؤدي إليها من عمل. ويكبر هذا النفور يوماً بعد يوم، حتى يصبح الوجدان مرشداً ودليلاً يأخذ بأيدينا إلى كل زاوية من الكون ويُشهد أبصارنا المعاني المنطوية فيها.

---

(١) كشف الخفاء للعجلوني، ٣٤٣/٢.

(٢) نيازي المصري: شاعر تركي صوفي (١٦١٨-١٦٩٤ م) ولد في قرية قريبة لولاية (ملاطْيه). أكمل دراسته في الأزهر الشريف، فلُقّب بـــ(المصري). له ديوان شعر ومؤلفات، تولّى الإرشاد في مدارس إستطنبول العلمية. (المترجم)

إن كل إنسان ما إنْ يأتي إلى الدنيا إلاّ ومعه هذا الدليل الذي يُبلغه المعالي والذرى. ولكن الغافل الغارق في المادة، الباحث عن الله في المختبر، الذي يصمّ أذنه عن الوجدان، ولا يُذكي جذْوته ويفجّر طاقته حتى يَضمُر فسوف لا يعرف حقيقة هذا الدليل بلا شك ولا يستطيع أن يفيد منه الفائدة المرجوة.

والآية الكريمة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وضّحتها أحاديث شريفة كثيرة رواها ما يقرب من ثلاثين من أجلّة الصحابة الكرام منهم ساداتنا علي وأبو سعيد الخدري وسراقة بن مالك وأمنا عائشة وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبدالله بن عمرو ﷺ. نذكر منها الحديث الآتي:

"قال عمرُ ﷺ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: "إن الله خلق آدم ثم مسح ظهرَه بيمينه واستخرج منه ذريةً فقال: خلقتُ هؤلاء لِلجنة وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذريةً فقال: خلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون". فقال رجل: يا رسول الله، ففيمَ العملُ؟ فقال رسول الله ﷺ: "إن الله عز وجل إذا خلق العبدَ للجنّة استعملَه بعمل أهل الجنة حتى يموت على عملٍ من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلَق العبدَ للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عملٍ من أعمال أهل النار فيدخله به النارَ..".[1]

وفي رواية أُبيّ بن كعب في قول الله عز وجل ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾... الآية. قال: "جَمَعهم فجعَلهم أرْواحا ثم صوَّرهم فاستنطقهم فتكلموا ثم أخذ عليهم العهدَ والميثاقَ وأَشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.. الخ" الحديث.[2]

٦) حديث آخر يروى عن عبد الله بن مسعود وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: "الشقيُّ مَن شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطنها".[3]

---

(١) المسند لأحمد بن حنبل، ٢٧٢/١؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٥٠٣/٢.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٥/٧.

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي ١٩٣/٧؛ المعجم الكبير للطبراني، ١٧٦/٣.

نعم، إن السعيد والشقي هو من سعد أو شقي وهو بعدُ في بطن أمه. ولكن سبْق الكتاب هذا لا يحصل من غير إرادة الإنسان، وإلى أي جهة من الشقاوة أو السعادة تدفع به...

٧) وفي حديث متفق عليه للرسول الكريم ﷺ وهو الحوار الذي جرى بين سيدنا آدم عليه السلام وسيدنا موسى عليه السلام يتوضح فيه "سبق الكتاب" الذي نحن بصدده.

"عن طاوسٍ، سمعتُ أبا هريرة عن النبي ﷺ قال: احتجَّ آدمُ وموسى، فقال له موسى: يا آدمُ أنت أبونا، خَيَّبْتَنا وأخرجتَنا من الجنة. قال له آدم: يا موسى، اصطفاك الله بكلامه وخَطَّ لك بيَده، أتلُومُني على أمرٍ قدَّره اللهُ عليَّ قبلَ أن يخلُقَني بأربعين سنةً؟ فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى، .. (ثلاثا)".[1]

وقد فسر السلف هذه المحاجة ووضحوها منذ القدم، نلخص هنا ما قالوه:

- حجّ آدم موسى لأنه أبوه.
- إن آدم وموسى صاحبا شريعة خاصة لكل منهما. فلربما لا يكون ذنباً لأحدهما ما هو ذنب للآخر، ولهذا حجّ آدم موسى.
- الجنة ليست دار تكليف، بخلاف الدنيا فهي دار تكليف. فآدم ليس مكلَّفاً في الجنة. بينما موسى حاججه بقاعدة تخص دار الدنيا. ولهذا قُبلت حجة آدم.
- أراد آدم أن يُفهم أن الخير والشر كلاهما من الله سبحانه، وهو الصواب، ولهذا حجّ موسى.

وأمثال هذه الإيضاحات والشروحات.[2]

---

(١) البخاري، تفسير (٢٠) ١/٣٠، القدر ١١، الانبياء ٣١، التوحيد ٣٧؛ مسلم القدر ١٣.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي، ١٦/٢٠١-٢٠٢.

فإننا لا نناقش هذه التوجيهات في شرح الحديث الشريف المذكور لتوقيرنا أقوال السلف، فضلاً عن أن هذه التوجيهات ليست من جنس الأمور التي يمكن أن توزن وتقاس. إلاّ أننا لا نغادر هذا البحث دون الإشارة إلى حكمة دقيقة فيه؛ إذ الحديث يفهمنا مسألة دقيقة خفية من مسائل القدر وهي سبق الكتاب؛ أي كتابة كل شيء قبل وجوده، وفيه مقارنة بين حجة آدم وحجة موسى عليهما السلام، ثم تعقيب الرسول ﷺ عليها بقوله: "فحجّ آدمُ موسى"، ويكررها ثلاثاً. ولا يقول الرسول الكريم أن كلام موسى خطأ. بل يلفت النظر الى شمولية حجة آدم عليه السلام.

في القدر جهتان:

الأولى: جهة تقديره سبحانه وتعيينه لكل شيء بعلمه المحيط، أي الجهة المتوجهة إلى الله سبحانه.

والثانية: هي الجهة المتعلقة بإرادة الإنسان.

فسيدنا موسى عليه السلام قد أخذ بجهة القدر المتعلقة بإرادة الإنسان فحسب، لدى تقييمه إخراج آدم من الجنة، بينما آدم قد نظر إلى المسألة من زاوية الجهتين معاً، أي جهة تقدير الله سبحانه وجهة إرادة الإنسان، أي حاور من مقام الجمع بين الجهتين. وحيث إن وجهة نظره أشمل فكانت الحجة له على موسى عليهما السلام.

ومع أن إرادة الإنسان ليس لها وجود خارجي، فإنها مرجع للسيئات التي تُرتكب، حيث إنها شرط في خلق الله لها. فالآية الكريمة تعطينا الميزان في هذا: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ومَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء: ٧٩). ولكن هناك جانب آخر من المسألة وهو المشيئة الإلهية كما هو في الآية الكريمة ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾(الإنسان:٣٠).

نعم، إن الله سبحانه حاكم مطلق الحكم يجري حكمه وإرادته فوق جميع الإرادات، وما تطلقون عليه "إرادة الإنسان" ما هي إلاّ كقطرة صغيرة، لا

تظهر ماهيتها إذا اختلطت ببحر زاخر، فهي لا شيء بذاتها، إلاّ أن الله سبحانه قد أنشأ الكون على هذا اللاّشَيْء. ومن هنا كسبت "الإرادة" اللاشَيْء أهمية عظيمة بقدر الكون.

ولهذا ينبغي النظر إلى القدَر بهذه الشمولية. فهذه النظرة هي نظرة مَقام الجمْع. والآيات الكريمة الآتية توضح المسألة: ﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ۞ فَمَنْ شَآءَ ذَكَرَهُ ۞ وَمَا يَذْكُرُونَ اِلاَّ اَنْ يَشَآءَ اللهُ هُوَ اَهْلُ التَّقْوَى واَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾(المدثر: ٥٤-٥٦).

وعندما قيل للإمام الغزالي: "إننا لا نفعل بل نُريد.." أجاب: "حسَناً، فمن الذي أعطى الإرادة؟".

إننا مكلَّفون بلا شك، ونفعل وكأننا نحن الفاعلون، ولكن حدود هذا التكليف وكُنهه لا يعلمه حق العلم إلاّ الذي كلّفنا به. فلقد أعطى لنا شيئاً يمكن أن يكون مصدراً للخير أو الشر، فلا علمَ لنا حقاً أهذا الشيء بطانة أم وجه؟ ولكن يُشاهد أن أفخر الأقمشة يُنسج عليها ومن يملكه يتوّج بتاج الملوك. فهذا الشيء -من جهة- لا شيء، ومن جهة أخرى شيء عظيم. وهذا ما يقتضيه الجمع لدى النظر إلى المسألة. فمن تناول المسألة بجهتَيْها فقد جمع مسألة القدر، أما الذين لم يتناولوها بهذا النمط من التفكير فقد أصبحوا جبرّيِين أو معتزلة.

نعم، إن كتاباً قد سبق، ولكن بجنب هذا الكتاب المجهول بالنسبة لنا كتاب آخر معلق في أعناقنا، كيفيته مجهولة أيضاً بالنسبة لنا. إن خالق الخير والشر هو الله، ولكن لا يرضى بالشر، والخير يرضاه. مريد الشر هو الإنسان، بينما سبحانه لا يريد أن يرتكب الإنسان الشر، ولكن حينما يريد فهو سبحانه وتعالى يخلقه.

٨) لنذكر أمثلة أخرى لتوضيح المسألة أكثر:

عندما نــــزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ

جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾(الأنبياء: ٩٨) اختلط الأمر على المشركين وحاروا، حيث الآية تخاطبهم قائلة: أنتم وما جعلتموه آلهة من أصنام، وما تعبدونه وتسندون إليه من مفاخر وبطولات فتنفخون فيه الانتصارات والإنجازات... أي كل ما تعبدون من دون الله، ليس إلاّ حطب جهنم.

والآية خطاب موجَّه أولاً ومباشرة إلى الأصنام التي تملأ الكعبة المشرَّفة والبالغ عددها ثلاثمائة وستين صنماً. فالآية الكريمة تهدد مدار فخر المشركين واعتزازهم بنار جهنم. فلا شك أنهم ما كانوا ليبقوا ساكتين أمام هذا التهديد، ولا بد أن يقولوا شيئاً إزاء هذا التحدّي الواضح. ولكن لا حيلة لهم، إذ ما كانوا يجدون في أنفسهم قدرة على المعارضة. ثم خطر على بالهم عبد الله بن الزّبَعْري[1] صاحب القدرة الفائقة في الإقناع والمنطق، مع التأكيد عليه أن يُسكت الرسول ﷺ قائلين: إن شرفنا وعزّنا بيدك!. وفعلاً فكَّر ابن الزبعرى بأن يداور الرسول ﷺ بلعبة منطقية، فقال له: تزعم أن الله أنــزل عليك هذه الآية: ﴿إِنَّكُم وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ وقد عُبدت الشمس والقمر والملائكة وعُزَيْر وعيسى ابن مريم. كل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟ فنــزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾(الأنبياء: ١٠١).[2]

نعم، إن الذين لم تلوَّث ثيابهم بغبار الدنيا، بَعيدون عن جهنم، وإن الملائكة الذين لم يغفلوا عن الله طرفة عين بَعيدون عن جهنم.

فالمسيح عليه السلام روح الله وكلمته، الذي نفخ الحياة في الإنسانية وأحيا القلوب الميتة، وعزير عليه السلام ذلك النبي العظيم، بعيدان عن جهنم بُعد الأزل عن الأبد. فالذين يعتقدون اعتقاداً خاطئاً سيروْن وَبال أمرهم، لأن الكتاب

---

(١) وقد أسلم عبد الله بن الزبعري بعد ذلك، وكان من الشعراء المشهورين، وأنشد شعراً معتذراً عن فعلته (تفسير القران العظيم لابن كثير، ٣٧٦/٥). (المترجم)

(٢) تفسير القران العظيم لابن كثير، ٣٧٤/٥-٣٧٥.

سبق للأنبياء والملائكة بالحسنى. وأن هذا التعبير القرآني "السبق بالحسنى" هو الجهة المتعلقة بموضوعنا.

٩) عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: أُغمي على عبد الرحمن بن عوف ثم أفاق فقال: ""أُغشي عليّ؟" قالوا نعم. قال: "صدقتم، إنه أتاني ملَكان هذه فقالا ألا تنطلق فنحاكمك إلى العزيز الأمين. فقال ملَك فإن هذا ممن كتبت له السعادة وهم في بطون أمهاتهم وسيمتّع الله بن بَنيه ما شاء الله. قال فعاش شهرا".[١]

والحديث الشريف الآتي -الذي سنحاول إيضاحه مفصلاً- يوضح الحادثة المذكورة آنفاً، أما الحديث الشريف فهو: "..فوالله إن أحدكم أو الرجلَ يعملُ بعمل أهل النار حتى ما يكونُ بينُه وبينها غيرُ باعٍ أو ذراعٍ فيَسْبقُ عليه الكتابُ فيعملُ بعمل أهل الجنة فيدخُلُها، وإن الرجلَ لَيعملُ بعمل أهل الجنة حتى ما يكونُ بينَه وبينَها غيرُ ذراعٍ أو ذراعين فيسبقُ عليه الكتاب فيعملُ بعمل أهل النار فيدخُلها. قال آدم: إلا ذراعٌ".[٢]

ومعلوم أن عبد الرحمن بن عوف من العشرة المبشرين بالجنة. والذي يهمنا في الحادثة هو "سبق الكتاب".

١٠) يروي لنا عامر بن سعد بن أبي وقاص هذه الحادثة عن أبيه:

"بينما سعد ﷺ يمشي إذ مرّ برجل وهو يشتم علياً وطلحة والزبير ﷺ، فقال له سعد: إنّك تشتم أقواماً قد سبق لهم من الله ما سبق، والله لتكُفَنّ عن شتمهم أو لأدعُوَنَّ الله عز وجل عليك، قال: "يخوّفني كأنه نبي!" فقال سعد: اللّهم إن كان يشتم أقواماً قد سبق لهم منك ما سبق، فاجعله اليوم أنكالاً!" فجاءت بُختيّة (الأنثى من الجمل) فأفرج الناس لها فتخبطته، فرأيت

---

(١) الجامع لمعمر بن راشد، ١١٢/١١.

(٢) البخاري، القدر ٤؛ مسلم، القدر ١.

الناس يتبعون سعداً يقولون: اســتجاب الله لك يا أبا إسحاق!".[1]

نعم إن أولئك الصحابة الكرام قد سبقت لهم من الله الحسنى: فسيدنا علي ﷺ هو الحيْدر الكرّار، وسيد الرجال، وصهر النبي ﷺ، وقد أثنى الرسول ﷺ عليه ثناءً جميلاً.

وطلحة بن عبيد الله ﷺ دافع عن الرسول ﷺ في أُحُد ويده مشلولة، حتى حظي بقول رسول الله ﷺ: "اسعوا لطلحة".[2]

والزبير بن العوام ﷺ وصفه الرسول الكريم ﷺ أنه حواريه قائلاً: "إن لِكلّ نبيّ حواريّا وإنّ حواريَّ الزبيْرُ بن العوام".[3]

وسعد بن أبي وقاص ﷺ الذي لم يتحمل الكلام البذيء الذي سمعه حول أولئك الأبرار هو ابن خال الرسول الكريم ﷺ، وقد دافع عنه في أُحُد وقال ﷺ بحقه: "ارم فداك أبي وأمي"[4] و "اللّهم استجب لسعد إذا دعاك".[5] ولهذا كان الناس يرهبون من دعاء سعد. فهؤلاء جميعاً قد سبقت لهم من الله الحسنى، أي أهم يدخلون الجنة من باب الرحمة بلطف إلهي دون استئذان.

فالعبد مهما فعل فالكتاب يسبقه، له أو عليه، ولكن يجب ألاّ يفهم مِنْ "سبْق الكتاب" الإكراه والجبر الخارجي.

وسبق أن قلنا آنفاً إن الله سبحانه كتب مقدرات العبد وما سيفعله وفق علمه الأزلي، فالذين سبقت لهم منه الحسنى لا يختلف أمرهم عن هذا، حيث إن الله سبحانه يعلم ما يعملون بإرادهم -حسنات كانت أم سيئات-. فقدّر سبحانه مثل هذه العاقبة، الحسنى لهم. فلا جرم أنه علاّم الغيوب، العالم

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ١٤٠/١؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٥٤/٩؛ حياة الصحابة للكاندهلوي، ٤٦٩/٢.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣٣،٣٤/٤.

(٣) البخاري، الجهاد ٤٠، ٤١، ١٣٥، فضائل الصحابة ١٣، المغازي ٢٩؛ مسلم، فضائل الصحابة ٤٨.

(٤) البخاري، جهاد ٨٠؛ مسلم، فضائل الصحابة ٤١،٤٢.

(٥) الترمذي، المناقب ٢٦.

بالجهر والخفي، بل علمه محيط بكل شيء قبل وجوده وبعده. ويظهر علمه هذا في سجلّ القدر، ثم يعمل العبد وفق ما جرى عليه الكتاب، ويسجل الملائكة هذه الأعمال، ثم يتجلى السجلان معاً ويُظهران التطابق التام.

اللّهم ألحقنا بالذين سبقت لهم منك الحسنى.. آمين.

الفصل الثاني

علاقة القضاء بالقدر

إن للقضاء والقدر جوانب شتى، ولكن يمكن جمعها في أربع مجاميع:

١. القضاء والقدر من حيث العلم الإلهي.

٢. القضاء والقدر من حيث الكتابة الإلهية لكل شيء.

٣. القضاء والقدر من حيث المشيئة الإلهية.

٤. القضاء والقدر من حيث الخلق.

وهناك مسائل كثيرة متداخلة بعضها في البعض الآخر تندرج تحت هذه الأُسس الأربعة، ولكن لئلا نغرق الموضوع في تفاصيل جزئية نصرف النظر عن درجها كمَوادّ مستقلة، ونحاول الآن أن نفصل هذه الأسس الأربعة كلٌّ على حده وحسب تسلسلها.

١. القضاء والقدر من حيث العلم الإلهي

أودّ أن أستهل الموضوع بحديث شريف ذكرناه سابقاً وهو:

"ما منكم من أحدٍ، ما من نفْسٍ منفُوسة إلا وقد كتَب اللهُ مكانَها من الجنة والنار".[1] بمعنى أن الله ﷻ يعلم مكان الإنسان من الجنة والنار قبل أن يُخلق. فلنفصّل القضاء والقدر من حيث العلم الأزلي:

إن الله سبحانه عليم بكل شيء، يقدّر كل شيء ويعينه وفق علمه. وهناك من المسائل ما يتفضل الله فيها علينا بالعطاء، ويقضي علينا قضاءه وحكمه ويجعلنا مكلفين بالقرآن الكريم بالذات. ولكن كثيراً منها ما لا تمش

---

(١) مسلم، القدر ٧.

لها نفوسُنا، إذ تجدها غير مرغوبة فيها. ولكن الله سبحانه، وهو العليم الخبير، لا يحكم بحقنا شيئاً ولا يقضي قضاءً إلاّ وفيه حِكَمٌ وفوائد ومصالح لنا. ففي تقديراته سبحانه وتعييناته قد أخذت هذه المصالح والفوائد بنظر الاعتبار. بيد أننا غافلون عنها جميعاً، حيث نجهل والله يعلم. إذ إن علمه بشيء ما ومقارنة حكمته له، لا ينفكّان أحدهما عن الآخر: العلم والحكمة. فالحِكَم والمصالح تعقب دائماً علمَه سبحانه، إلاّ أنه سبحانه ليس مضطراً إلى القيام وفق الحكم والمصالح، ولكن كما أن علمه محيط بكل شيء كذلك حكمته وسعتْ كل شيء. فهو عليم بكل شيء حكيم في كل شيء. ولا يمكن فك أحدهما عن الآخر.

في كل شيء له حكمة، فالله لا يعبث. فالحكمة دائماً طوع علمه، فأينما يتجلى العلم وتزدهر القدرة والإرادة، إذا بالحكمة تسطع هناك وتتلمع. إلاّ أننا نجد التكاليف -في أغلب الأحيان- كريهة على نفوسنا لجهلنا بهذه الحكم والمصالح. لأننا لا نعرف حُسن هذه التكاليف من حيث نتائجها، أي أنها حسنة لغيرها كما هو في المصطلح الفقهي. إذ لو نظر الإنسان إلى الموجودات من هذه الجهة -أي من حيث النتيجة- يجد كثيراً جداً من الحكم والمصالح. أمّا السيئات والشرور فهي مرتبطة بكسبنا الخاص، والآية الكريمة تبين المسألة بوضوح تام:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة: ٢١٦).

أي أن كثيراً من الأمور تنطوي على مصالح وفوائد وخيرات رغم ان ظاهرها كريه وقبيح. فالوضوء في أثناء البرد، وقطع المسافات لبلوغ الجماعة في المسجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة.. وأمثالها أمور ثقيلة على النفوس كريهة عليها. ولكن تحت هذه الصعوبة والثقل خطوات تلو الأخرى للتقرب إلى الجنة والتنعم برحمة الله مرحلة مرحلة. وهناك أيضاً أمور تشتهيها

النفوس وترغب بها وتسوق الإنسان إلى عالم الشهوات بينما وراءها سقوط في هاوية الجحيم وبعدٌ عن رحمة الله تعالى خطوة خطوة.

ولقد أصاب عمر بن الخطاب ﷺ في إدراك هذه المسألة حيث قال: "ما أبالي على أي حال أصبحت، على ما أحب أو على ما أكره. لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره".[١] والأصل في الأمر هو الانقياد لما يقضيه الله سبحانه والتجنب عن البحث عن الحكم فيها. نعم إن الواجب علينا هو السعي للخير وحمل نية الخير، فلا ينبغي أن ننخدع بالظاهر من الأمر والنهي بل علينا الطاعة التامة لأوامره تعالى.

إن خير مثال في هذا الصدد هو صلح الحديبية. إذ فيه من المواقف والأحوال ما لا ترغب فيها النفس، إذا ما نظر إليها من حيث الملك، أي من حيث ظاهر الأمر. ولكن إذا ما أخذ الأمر من حيث الملكوت والأبعاد اللدنية، فهو "فتح قريب" كما هو في التعبير القرآني.

وحقّاً إن ظاهر الأمر في الحديبية قد لا تتحمله النفوس، لكأن كل ما يعادي الإسلام قد اجتمع هناك، بينما الصحابة الكرام المستعدون للتضحية بكل غالٍ ونفيس، ليس لهم فيه أصغر حق. حيث كانت مشاعرهم متهيجة لأجل الطواف حول الكعبة المعظمة.

نعم هؤلاء الكرام ينتظرون منذ سنين وعلى مضض هذه الفرصة، والآن يحول الأعداء بينهم وبين ما يرغبون. لذا فإنه ثقيل على نفوسهم الرجوع من مكان قريب للكعبة، ولم يك هيناً. إذنْ على تلك النفوس المتهيأة للطواف أن ترضخ لبنود الصلح. ولاسيما بعدما شاهدوا ردّ أبي جندل وهو مكبل بالسلاسل إلى الكفار بينما هو يريد الاحتماء بالرسول ﷺ. ولا شك أن هذا المنظر مؤلم جدّاً لنفوس الصحب الكرام.. بمعنى أن جميع ما في ظاهر الحديبية يجري خلاف رغبات المؤمنين. ولكن رغم الانفعال الذي بلغ ذروته

(١) كتاب الزهد لابن المبارك، ص: ١٤٣.

في نفوس المؤمنين فإن الرسول الكريم ﷺ حافظ على سكينته وهو على يقين من العاقبة التي ستؤول إلى خير بلا شك. وهو معنى الابتسامة الحلوة التي كانت تحت نظراته الشجية. وحقاً إن إدراك أبعاد المسألة أمر صعب جداً. حتى أن عمر بن الخطاب ﷺ الذي لم يدرك سر المسألة، أخذ بالاستغفار والتصدق طوال حياته لمّا أدرك السر كفارةً لما بدر منه في الحديبية. ولكن بعد نـــزول الآيات الكريمة أخذت العقد تنحل والمشاكل تتوضح وتتبدد لدى الصحابة الكرام بجميع أبعاد المسألة ظاهراً وباطناً.

نعم، الحديبية فتح، حيث إن قريشاً أخذت موقع المعاهد مع المسلمين، وهذا اعتراف رسمي بوجودهم. والمسلمون بدورهم ضمنوا العمرة في السنة القادمة، وهذا يعني أن الكعبة ليست حصراً بالمكيّين، مما أحيا في القبائل الأخرى روح الشجاعة. وفي صلح الحديبية فرصة عظيمة جداً للمسلمين لنشر دعوتهم، حيث قُرر ألاّ يحارِب الطرفان طوال عشر سنوات، وفعلاً دخلت القبائل، قبيلة إثر أخرى في الإسلام بعد أداء الإرشاد والتبليغ طوال هذه المدة الطويلة. فالحديبية حقاً فتح مبين.[1]

ومثال آخر نسوقه من ســـيدنا يوســـف عليه السلام لرؤية الجانب الملكوتي للحوادث وبيان وجهها الحسن.

إنه لأجل أن يكون عزيز مصر، كان لا بد أن يُرمى أوّلاً في الجبّ، ويباع بيع العبيد، ثم يُزجّ في الســـجن... وقد تجرع آلام كل هذا ســـيدنا يوسف عليه السلام واجتاز الامتحانات الصعبة بنجاح باهر يليق بنبيّ كريم. فوَراء الحوادث التي ظاهرها الصعوبة والثقل والكراهة مرتبة يرتقي إليها ليحكم ويؤدي دوره في قدَر الأمة، وقد بلغ سيدنا يوسف هذه المرتبة فعلاً.

ولقد ارتقى سيدنا الرسول الكريم ﷺ إلى المعراج في مثل هذه الظروف الصعبة والآلام تحيط به والمضايقات تشدد عليه الخناق، وكانت الأحداث

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ٤/١٨٨-٢٠٢.

كلها ضده. إذ المسلمون تحت الحصار، وقد توفي إثنان ممن كانوا السند له، فلم تعد خديجة الكبرى ولا أبو طالب جنب الرسول ﷺ بحياتهما الجسمانية، فضلاً عما لاقاه في الطائف من الرد.(١)

ففي هذه الأثناء بالذات جاءت الدعوة الكريمة من الله سبحانه ليرفعه إلى السماء، فارتقى بالمعراج حتى بلغ قاب قوسين أو أدنى (بين الإمكان والوجوب). نعم لقد بلغ موضعاً لم يقدر جبريل عليه السلام إلاّ الاكتفاء بمشاهدته فحسب، حيث لا يمكنه أن يتقدم ولو بمقدار أنملة.(٢)

أما سيدنا موسى عليه السلام فقد بدأت معاناته منذ الولادة حيث وضع في التابوت وأُلقي به في النهر، ثم أدخله الله إلى قصر فرعون، عدوه وعدو الله الأكبر، ثم عاش عيش الغرباء البعيد عن الأهل بعد أن لطم قبطياً فقضى عليه.(٣) نعم إن تربية بني إسرائيل ورفعهم إلى المستوى المنشود لا بد له من اجتياز هذه الصفحات من الحياة التحضيرية. فعلى الرغم من أن سلسلة هذه الحوادث التي ترد بانتظام كريهة ظاهراً، فالله سبحانه يخلق الخير المطلق من هذه البدايات المليئة بالأحداث الصعبة الكريهة.

وكذا سيدنا المسيح عليه السلام كيف رُفع إلى السماء؟ وقد أُعدّ له الصليب ليصلب بعد أن عانى ما عانى من مضايقات وترصدات متعاقبة رهيبة. إلاّ أن الله سبحانه في تلك الأثناء بالذات يرفعه بيده الرحيمة إلى السماء.(٤) فكما كانت ولادته معجزة، عاد إلى السماء بمعجزة أيضاً.

والأمر نفسه واقع في الأمة المحمدية. وسيخلق الله سبحانه خيرات كثيرة مما تعانيه كالأمم السابقة، وسينعم عليها بالفرج والنصر بعد اجتيازها

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ٣/١٥١-١٦٦.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير، ٣/١٣٥-١٤٥؛ وجاء في الخبر: "قال جبريل: تقدّم يا رسول الله، ليس لي أن أجوز هذا المكان، ولو دنوت أنملة لاحترقت". (تفسير الميزان للطباطبائي، ١٣/١٨.)

(٣) انظر: سورة القصص: ١-٣٥.

(٤) انظر: سورة النساء: ١٥٨.

هـــذه الحوادث الجســـام التي يبدو ظاهرها كريهاً مؤلِما.

فكل حادثة ببدايتها ونهايتها تنطوي في العلم الإلهي على أسرار كثيرة كهذه. فالله ﷻ الذي هو الأول والآخر والظاهر والباطن عليم بجهة الملك والملكوت بكل شيء. والقدر هو عنوان ذو أسرار لعلمه هذا، وبكيفيته هذه فالقدر اسم آخر لحقيقة اللوح المحفوظ.

٢. القضاء والقدر من حيث الكتابة

إن تقدير الله سبحانه لما سيحدث في المستقبل وتعيينه له مسبقاً وظهوره في حينه كتابةٌ تخص القضاء والقدر من حيث العلم الإلهي، وكون الأشياء مكتوبة في أثناء وقوعها كتابةٌ أيضاً، ولها علاقة بمحاسبة الإنسان على أعماله.

نعم، إن كل ما يحدث ويجري وكل ما في حياتنا من أحداث إنما يُسجل ويُكتب آناً بآن وكأنه معلّق على شريط الزمان ليلاً ونهاراً. ونحن نطلق على هذا "التقدير اليومي".

إن مع كتابة ﴿كِرَاماً كاتِبينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾(الانفطار: ١١-١٢) هناك كتابة استنساخ لوحات قدرية أيضاً من "إمام مبين"، في "كتاب مبين". والكتابة الأولى توضحها الآية الجليلة: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾(الإسراء: ١٣). بمعنى أن هناك كتابة علمية ليست لها وجود خارجي والتي نُطلق عليها اسم "اللوح المحفوظ"، وكتاب آخر يكتبه الملائكة الكرام والذي له وجود خارجي يُسجَّل فيه كل ما يعمله الإنسان. وفي الحقيقة إن الكتابين مطابقان تماماً حرفاً بحرف دون فرق مهما كان ضئيلاً. أي أن الإنسان لا يعمل إلاّ ما قُدّر له مسبَقاً، إلاّ أن إرادتنا هي السبب في إلباس الكتاب الذي ليس له إلاّ وجود علمي وجوداً خارجياً، حيث إن الكتابة الثانية أُخذت فيها إرادتنا بنظر الاعتبار.

وفي أثناء المحكمة الكبرى سيُحكم على الإنسان وفق مقابلة الكتابين معاً. وسيظهر أن كلاًّ من الكتابين هو عين الآخر، حيث سيقول الملَك الكريم يا ربي قد كتبتُ كذا وكذا، وسيُظهر الرب الجليل كتاباً آخر ويقول: لقد كتبتُ هذا لعلمي بما سيفعله". أي أن أحد الكتابيْن بيد الملَك والآخر بيده ﷻ جل وعلا. فما يسجله هؤلاء الكرام الكاتبون الذين هم رفيعو الشأن المنـــزَّهون عن التوافه، والذي لا يرقى الشك والشبهة إلى كتابتهم قط، هو جهة أخرى من القضاء والقدر.

نعم، إن الله ﷻ يضع خطة كل شيء وبرنامجه، ويمنحه "وجوداً علمياً". ثم يمنح هذا الوجود العلمي "وجوداً خارجياً" بتعليق قدرته وإرادته عليه. لذا يكتب كل شيء أولاً على وفق الوجود العلمي. ثم يعمل الإنسان أعماله موافقةً تماماً لما جرى عليه ذلك الكتاب، وهذا ما يكتبه الملائكة الكرام.

لنحاول أن نوضح هذه المسألة في ضوء الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء: ١٠٥) فالذكر يعني: النصيحة، أما هنا فيأتي بمعنى التوراة، أو اللوح المحفوظ في معنى أشمل. وعلى هذا المعنى يمكن أن توضح الآية الكريمة كالآتي: إن الله سبحانه بعد ما كتب في اللوح المحفوظ ما كتب، كتب في الكتب المرسلة إلى الأنبياء مستنسخات من اللوح المحفوظ وهي: أن عبادي الصالحين يرثون الأرض، أي العباد الصالحون هم الوارثون الحقيقيّون الدائمون في الأرض. أما حاكمية الآخرين للأرض فهي عابرة خاطفة؛ إذ الحاكمية الدائمة على الأرض بالتجدد المستمر إنما هي حاكمية العباد الصالحين وما يتشكل منهم من أمم صالحة ومجتمعات صالحة. ولقد تقرر هذا قانوناً في اللوح المحفوظ، وسُجّل في الزبور نقلاً منه. أجل، إن الزبور غير المحرّف الذي أُرسل إلى سيدنا داود عليه السلام فيه هذا القانون.

نعم، ربما تظهر نظم -مما لا يرضى به الله- في الشرق والغرب، ويظهر

فراعنة ومتمردون في كل مكان، ولكن لفترة معيّنة ولمدة عابرة. فهذا لا يخالف القانون المكتوب في اللوح المحفوظ وفي الزبور والذي أخبر عنه القرآن الكريم. لأن الميراث المذكور هو الميراث الدائم والحاكمية المستمرة لمدة طويلة. أما ظهور حاكميات غير الصالحين بصورة مؤقّتة، فهو مبني على حكمة إلهية وهي إيقاظ المسلمين وتذكيرهم ليبادروا إلى الاتفاق فيما بينهم. وهذا قانون إلهي لا يقدر على تبديله أحدٌ قط.

فذوو الأخلاق الفاضلة في عصرهم أو من لهم نصيب وافر منها هم الذين يحكمون في الأرض. وجدير بالملاحظة أن المقصود بالأخلاق الفاضلة لا يعني التردد إلى المسجد أو ما شابه ذلك، بل هو الاتصاف بأخلاق النبي ﷺ في كافة مرافق الحياة. وبهذه الأخلاق يدرك الإنسان معنى الأشياء والحوادث وعلاقة الإنسان بالكائنات. وبها أيضاً المحافظة على التوازن التام بين سبر غور الأنفس والتفكر في سعة الآفاق.. وبمعنى أوسع إن من يقدر على إدراك الخلود فهو الذي يحقق الصلاح بمعناه الحقيقي.

ولا يمكن أن يحقق هذا المعنى الواسع للحاكمية، الذين يثيرون الإرهاب والفوضى في أنحاء العالم، ويرتكبون الجرائم تلوَ الجرائم، ويستغفلون الناس -ولاسيما الشباب- بمشاكل سياسية، ويختلقون شعارات سياسية لجذب الرأي العام، ويعتدون بعقولهم تاركين الشورى فيما بينهم... هؤلاء لا يمكنهم قطعاً أن يؤسسوا هذه الحاكمية -بمعناها الحقيقي- وسيفيقون من غفلتهم يوماً من الأيام عند شروق شمس الإسلام، وعندها يندَمون، حيث يدركون تخبطهم في ظلمات دامسة، فيعترفون بخطئهم.

نعم، إن الإنسان الذي خلق مكرماً سيجد الطريق السوي يوماً ما، إذ بخلافه يكون هذا القانون خطأ -والعياذ بالله-. ومن المعلوم أن القانون لا يتبدل، إذ: ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾(الروم: ٣٠). إلاّ أنه سبحانه له قانون آخر وهو ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد: ١١). فالله

سبحانه لا يذلّ أمة عزيزة كانت تاجاً على الرؤوس إلاّ إذا غيّرت الأمة ما في داخلها. فهذا القانون سار في المعنى الإيجابي والسلبي على السواء. لذا ينبغي الحفاظ على النفس، والتعمق فيها، والسعي لإدراكها. فمن كان يريد إحراز لقب الفاتح فليفتح قلعة النفس أولاً، ومن استعصى عليه فتح الداخل لا يمكن أن يفتح شيئاً في الخارج.

والذين أدركوا مضمون التقوى والإحسان في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾(النحل: ١٢٨) أصبحوا في معية الله سبحانه. ترى ماذا يعني الإحسان؟ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه. الإحسان هو نور الباطن... هو عمق المشاعر... هو سعة الأحاسيس... هو إحراز ملَكة النفوذ إلى الباطن دون الوقوع في قبضة أنانية النفس... هو الشروع بالفتح الخارجي من الداخل، والحفاظ على الفتح في كل مرحلة من مراحله... وبتعبير آخر هو بلوغ الصلاح الكامل.

لقد ذكرنا هذا الكلام استطراداً لنبين أن هذا القانون وأمثاله مكتوب في اللوح المحفوظ ولن يتبدّل قط. ولأهمية هذه المسألة –من دون تخطي حدود علاقتها بالقدر– نذكر الآية الكريمة الآتية:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِم أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(النور: ٥٥).

إن الله سُبْحَانه يعِد الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإن هذا وعد الله، ووعده صادق بلا ريب. لأنه محال أن يُخلف وعده، وهو القادر على أن يفي به، فهو الحاكم على كل شيء. ولا شك أنه سيحقق ما وعده من الإستخلاف، وسيستخلف الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الأرض. وعندها ستكون دفة الحياة الاجتماعية بأيديكم، وتنتظم الحياة الاقتصادية

بتنظيمكم أنتم، وستدخل التربية الفردية والأُسرية في نظام جديد. نعم وحينها ستديرون العالم. فالأمر ينتهي بكم وإليكم، فالذين يقتسمون العالم فيما بينهم حول الموائد المستديرة اليوم لن يتخذون قراراً إلاّ وينظرون إلى ملامح وجوهكم ونظراتكم. وستتخذ جغرافية المجتمع أشكالها حسب أوامركم، بل ســـيحاولون أن يستشفوا المعاني من نظراتكم وإيماءاتكم، وستكونون -كما كنتم في التاريخ- أصحاب الأمر في نصب أحدهم أو عزله. وسيجد الملوك أمانيهم على أبوابكم، ويتلقون كلامكم أوامرَ لهم. فما تقولونه أنتم سيتحقق حتماً، وما ترفضونه يُرفع ويزال حالاً. فأنتم هم من استخلفهم المولى الكريم من سلطان في ذلك اليوم...

وهذا ليس كلاماً غير واقعي وخيالاً وأماني... لأن الذين فازوا بالصلاح في الماضي بلغوا هذه الذروة، وهو قانون إلهي نافذ في كل زمان ومكان. فأنتم متى ما حققتم الصلاح في أنفسكم ستتحقق النتائج وتكون مقدّرة حتماً.

بمعنى أن هناك كتابتين:

الأولى: الكتابة المكتوبة في اللوح المحفوظ. فكل شيء موجود في اللوح المحفوظ بوجوده العلمي.

والثانية: كتابة الحوادث التي ترد إلى الوجود تترى ومتعاقبة أي توجد من حيث الوجود الخارجي. أما الأعمال الإرادية التي فيها، فهي التي تقوم عليها المحاسبة حيث تعود إلى الإرادة نفسها. حيث إن الآية الكريمة تذكر الكتابتين معاً: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ونَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾(يس: ١٢). فجميع ما قام به الإنسان من أعمال وما خلّفه من صدقات جارية مكتوبة كلها دون استثناء، فهذه هي الكتابة الثانية، علماً أن كل شيء قد كتب بوجوده العلمي مسبقاً كما هو واضح في الآية الكريمة نفسها: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾. فكل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ دون إهمال شيء قط، كما تبينه الآية الكريمة:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(الأنعام: ٣٨).

وقد فسّر معظم المفسرين "الكتاب" الوارد في الآية الكريمة بـــ"اللوح المحفوظ" رغم أن بعضهم فسّره بـــ"القرآن". وقد ورد حديث شريف حول الكتابة الثانية للأفعال الإرادية وأنها تعقب الكتابة الأولى وهو: «كان الله و لم يكن شيء غيرُه، وكان عرشه على الماء، وكتَبَ في الذِّكْرِ كلَّ شيء»[١] فكل شيء يُكتب حسب تسلسل حدوثه، وهذه الكتابة تشكل الوجه الثاني للقدر.

٣. القضاء والقدر من حيث المشيئة الإلهية

القضاء والقدر من حيث المشيئة الإلهية يمكن أن يكون كالآتي:

أولاً: المشيئة الإلهية في الآيات الكريمة

إن كلمة شاء، يشاء، مشيئة، تعني الإرادة وهي من الكلمات الواردة في القرآن الكريم بكثرة. وعلاقة المشيئة الإلهية بالقدر تضفي على القدر بعداً آخر.

إن المشيئة الإلهية هي الأصل في وقوع الحوادث وظهور الأشياء، فالقرآن الكريم يذكّرنا بهذه الحقيقة في كثير من آياته الكريمة، سنذكر قسماً منها:

آ. ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ۞ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾(الكهف: ٢٣-٢٤) بمعنى عندما تعزم على شيء لتفعله، عليك أن تتخذ المشيئة الإلهية أساساً له وتربطه بإرادته سبحانه. وفي الحقيقة إنك لا يمكن أن تقوم بشيء ما لم يشأ هو سبحانه. وعلى الإنسان ألاّ يغيب هذا عن باله عندما ينوي الشروع بأي عمل من أعماله.

---

(١) البخاري، بدء الخلق ١؛ الترمذي، تفسير سورة المائدة (٥) ٣.

ولمناسبة هذه الآية الكريمة يعلّمنا الرسول الكريم ﷺ الحادثة الآتية:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال سليمان بن داود عليهما السلام، لأطوفنّ الليلةَ بمائة امرأةٍ، تلد كلٌّ امرأة غُلاما يقاتل في سبيل الله. فقال له الملك: قل إن شاء الله، فلمْ يقُل ونسي. فأطاف بهن، ولم تلد منهن إلا امرأةٌ نصفَ إنسانٍ. قال النبي ﷺ: لو قال إن شاء اللهُ لم يَحنَثْ، وكان أرْجَى لِحاجته".[1]

نعم، إن على الإنسان أن يعتقد جازماً أنه ليس بمقدور أحد فعل شيء ما لم يشأه سبحانه. فالإنسان الخبير بالبعد اللدنّيّ للأشياء والقادر على الإنصات إلى عالمه الداخلي، يعتقد بهذه الحقيقة، وعليه أن يعتقد بها، بما لا يمكن أن يرد خلافها إلى خلده ولو بمقدار ذرة.

إننا عندما ننظر إلى الأشياء والحوادث وعلاقتِنا بها، ندرك ونرى بيقين أننا لا نستطيع حمل قشة صغيرة ما لم يشأ الله سبحانه ذلك. بل يحدث بعض الأحيان أننا بعد أن نهيئ المقدمات جميعها ونفكر بالمسألة بأوجهها كافة، ونخطط وفق ذلك حتى نعتقد أننا استكملنا الشروط كافة، وإذا بنا نشاهد أن الأمر قد انقلب على عقبيه باحتمال لا يخطر على بال. بمعنى أن لو كانت الاحتمالات محسوباً حسابها جميعاً ولكن المشيئة الإلهية لم تتعلق بها، أي إن لم يشأ سبحانه تحقق ذلك الشيء بالشكل الذي نريده، لا يتحقق قطعاً حتى لو استكملت الشروط الظاهرة. وهكذا تذهب خططنا أدراج الرياح. فالآية الكريمة تعلّمنا ذلك: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾(الإنسان: ٣٠). أي إن إرادته سبحانه نافذة حتى لو بذلتم كل البذل وأردتم بكل إرادتكم، فكلّ ذلك لا يعني شيئاً إن لم يرده هو سبحانه، فالجهود تذهب هباء، إن لم تتعلق الإرادة الإلهية بذلك الشيء. ولكن كثيراً ما يلطف بنا سبحانه فيقبل الأسباب -هكذا تجري العادة الإلهية- وإرادة الإنسان بمثابة دعاء. وهكذا المشيئة الإلهية تتعلق بكل شيء وبكل أجزاء الحوادث، فهي مندمجة معها اندماجاً كلياً.

---

(١) البخاري، النكاح ١١٩، الجهاد ٢٣؛ المسند لأحمد بن حنبل، ٢/٥٠٦، ٢٧٥، ٢٢٩.

فالمشيئة الإلهية تظهر نفسها في جميع جهات الحياة وفي كل صفحة من صفحات حياة الإنسان كما تعبّر عنها الآية الكريمة الآتية:

ب. ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللّٰهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(البقرة: ٢٥٣).

فلولا مشيئة الله إذن لما قدرتم على القيام بعمل شيء مهما كان. فمثلاً لو شاء الله ما تقاتلتم. ولكن لأنكم تتقاتلون فإن أعمالكم الإيجابية أو السلبية -سواءً أكانت لكم أو عليكم- مرتبطة بمشيئته سبحانه كلياً. فما شاء الله كان ولا يُسأل سبحانه عمّا فعل ويفعل، ولا يستشير أحداً في ما فعل ويفعل. فالحديث الشريف الآتي قاعدة مقررة: "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن".[1] فما شاء الله كان ويحظى بالوجود، وما لم يشأ (أي ما شاء ألاّ يكون) لا يكون.

وهنا أمر ملفت للنظر وهو: تعلق مشيئته سبحانه بالعدم. ولهذا فما شاء الله كان، وما يشأ ألاَّ يكون لا يكون. نعم إن المشيئة الإلهية تتعلق بالوجود والعدم. وإلاّ ليس الأمر كما يقوله البعض: إن المشيئة الإلهية إذا تعلقت بشيء يكون وإن لم تتعلق لا يكون، فهذا الأمر خطأ في الفهم. فليس هناك عدم تعلق المشيئة الإلهية بشيء إطلاقاً. لأن العدم كالوجود وفي قبضة مشيئته سبحانه.

فلو استوعب المعتزلة والجبرية فحوى الحديث المذكور وما فيه من معانٍ دقيقة لما وقعوا في الورطات التي وقعوا فيها. حيث إن الرسول الكريم ﷺ يوضح الأمرين معاً بــ"الكينونة".

---

(١) أبو داود، الأدب ١٠٦.

والمشيئة أيضاً هي الفاصلة في مسألة الإيمان والهداية. فالذين ينظرون إلى هذه المسألة من هذه الزاوية يقولون: إن الإيمان نور يقذفه الله تعالى في قلب من يشاء من عباده، بعد صرف الجزء الاختياري. بمعنى أنت تسعى وتبذل الجهد والله سبحانه يخلقه. نعم، إن ذلك النور لا يمكنك أن تشعله في نفسك ولا تستطيع أن تديمه إلى الأبد، فذلك النور ليس إلاّ الله يشعله إذا شاء ويضيئه في قلبك إذا أراد. والدليل على ذلك:

ج. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(يونس: ٩٩). أي لو شاء الذي رباك وأبلغك الكمال وهو الحاكم على كل شيء، لهدى الناس كلهم. وهناك آية أخرى في هذا الباب:

د. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(الأنعام: ٣٥). إن هذا التنبيه الإلهيّ لشخص الرسول ﷺ إنما هو تنبيه تجاه جميع الانحرافات التي في مسألة القدر. نعم لو شاء ربك لهداهم جميعاً، ولسجد الناس كلهم. فكان الناس كلهم ذوي وجدان منور ويحظون بالعبودية الخالصة لله ويكونون مكرمين بالإيمان والإسلام. ولكن مشيئة الله غير هذا. فلم تتعلق بهذا النمط من الهداية ولهذا لم يحدث هذا.

هـ. ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(المائدة: ٤٨).

نعم لو شاء ربنا لجعل الناس كلهم أمة واحدة، ولكن المشيئة الإلهية

أرادت أن تكون أمماً عديدة متميزة. ولهذا ظهرت الأمم هكذا متمايزة بعضها عن البعض، للابتلاء والامتحان.

أما حاكمية الدول ودوامها وتعاقب الحكام في هذه الدول ما هي إلاّ بمشيئة الله، والآية الكريمة التي توضح هذه هي:

و. ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(آل عمران: ١٤٠). فالآية الكريمة تعبّر عن المشيئة الإلهية رغم أن الكلمة لا ترد فيها صراحة. لأن ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا﴾ تبيّن بوضوح أن تبدل أحوال الناس ومواقفهم وأطوارهم هي بأمرٍ إلهي وفي قبضته سبحانه. فالأيام تتداول وتتعاقب بيده بكل سهولة. ولكن يا ترى ونحن نذكر جميع هذه الأمور فهل يعني هذا نفيٌ للإرادة الإنسانية؟ الجواب: كلا. ولكن لا نتطرق حالياً إلى ذلك الموضوع. لأننا نبحث هنا في الآيات المتعلقة بالمشيئة الإلهية... وهناك آية أخرى:

ز. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾(النساء: ١٣٣). نعم، إن الله سبحانه وتعالى لقادر على أن يُذهبكم ويأتي بآخرين بدلاً منكم؛ فكما أذهب الصحابة الكرام ثم الأمويين ثم العباسيين ثم السلاجقة ثم أتى بالعثمانيين، فأذهبهم أيضاً، فأصبحت الأمانة الكبرى، الميراث المقدّس، تنتظر المؤتمنين الجدد، ترى مَنْ من هؤلاء لهم اليد الطولى في هذا الأمر؟ وكم هي حصة العقل والدهاء في هذا الميدان؟ وكم مَن حاول منهم أن يحول دون السقوط والانعدام؟ فالقانون الإلهي الذي لايتبدل هو مدى رعايتهم للشروط العادية –الأسباب– التي وضعتها المشيئة الإلهية، إذ رعايتهم لها على جانب عظيم من الأهمية في البقاء والوجود وتحمّل أعباءِ الدين والذود عنه. ويمكن أن نورد أمثلة كثيرة من التاريخ حول صعود الأمم وسقوطها. ولكن لا نتطرق إليها هنا لئلا نخلّ بحدود مسألتنا التي نحن بصددها.

نعم، إن أعظم قضية على سطح الأرض هي الحفاظ على الدين، لأن الدين هو الذي بيّن غاية الحياة ونتيجتها، وهو أيضاً وضع أفضل الأسس وأعدل الموازين في العلاقات بين الناس. فالحفاظ على هذه العلاقات هي ضمان لأفضل وأكمل حياة للناس وليس فقط لوجودهم. بينما دفع الناس إلى تذويب ماهيتهم الحقيقية والفطرية وإبعادهم عن شخصيتهم الذاتية وصهرهم في أنظمة أجنبية وثقافات غريبة عليهم يجعلهم محرومين من طاقاهم الذاتية ويسوقهم إلى الاستجداء على أبواب الآخرين. علماً أن منبع جميع الفضائل والحسنات هو الدين.

فمهما ابتعد الإنسان عن الدين فإنه يستشعر دوماً في باطنه بالفراغ الذي يتركه الدين. وأيّما أمة ابتعدت عن الدين وأعرضت عنه انقلب بنياها المعنوي والمادي وأصبح عاليه سافله. إن الدولة الكافرة ربما تملك اقتصاداً قوياً، ولكن لا يمكن أن تجد الأمم المتدينة التي أعرضت عن الدين مثل ذلك الاقتصاد. ذلك لأهم لم يراعوا قسماً من الأسباب التي وضعتها المشيئة الإلهية كشرط أول لحياهم. فالآية الآتية توضح هذه النقطة:

ح. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(المائدة: ٥٤).

فكلمة "ارْتدّ، يرْتدّ" تعني الرجوع إلى الخلف، أي الرجوع عن الدين. فالقرآن يخاطب كل مؤمن بهذه الكلمة بما تتحمله من معاني: الارْتداد عن العقيدة، الارتداد عن العمل، حتى الارتداد عن التصور والارتداد عن التفكر... وهكذا هناك معان أخرى كثيرة.

فالفرد –أو الجماعة– الذي بلغ مستوى معيّناً في حياته الدينية وأصبح جزءاً لا يتجزأ من الدعوة إلى الله، عندما يجد نفسه أمام هذه الآية الكريمة

يستشعر بأنها تهدده بالرجوع إلى الحالة السابقة، أي قبل الإيمان. لأن المراحل التي كسبها الفرد -أو الجماعة- هي لطف إلهي فحسب. فلو أرخى الفرد -أو الجماعة- عنان المثابرة على العمل و لم يتمكن من المحافظة على الحيلولة دون التقهقر المعنوي، فسوف يسلب الله سبحانه منه هذه الدعوة ويسلمها إلى شخص آخر أو جماعة أخرى.

وكذا الدولة إن كانَت قَد جعلت روح الحياة هو الدين وتمتثل هذا الأمر، فالأمة بكاملها تكون المعنية بالآية الكريمة. والتهديد موجّه إليهم جميعاً. إذ الأمة التي أعزّها الله باتخاذها الدين حياة لها، لو سحبت يدها عما أعزّها الله به ستتردّى رأساً على عقب بلا ريب ويعزّ الله أمة أخرى.

ويُلاحظ في كلمة ﴿بِقَوْمٍ﴾ تنوين التنكير. أي أيّ قوم كان، وربما هم مجهولون لدى الناس ولا يخطرون على بال أحد. ولا يُعلم متى يظهرون وبأي ظروف يأتون. إلاّ أن أوصافهم معيّنة. إذن فسيتسابق كل قوم ليكون هو القوم الذي أثنى عليه الله. فكما لا يمكن أن يدّعي قوم من الأقوام أننا المعنيون بالآية، لا ييأس أي قوم كان عن الاتصاف بتلك الأوصاف.

وأوصاف ذلك القوم هي الآتية:

الصفة الأولى: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ الله. حيث يضع سبحانه في قلوب الناس حسن الظن بهم. "عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: إذا أحب الله العبدَ نادى جبريلَ إن الله يحب فلانًا فأَحْبِبْه، فيحبه جبريل؛ فينادي جبريلُ في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأَحِبُّوهُ، فيحبه أهل السماء؛ ثم يُوضَع له القبولُ في الأرضِ".[1] وعندها يرقب الجميعُ ما تشير إليه عيونهم، ويؤثر فيهم كلامهم، بل كل ما يقترحونه يُتلقى أمراً، وحالما يأمرون ينفذ فوراً ويستقر في القلوب والوجدان.

---

(١) البخاري، بدء الخلق ٦؛ مسلم، البر ١٥٦.

الصفة الثانية: ﴿يُحِبُّونَهُ﴾ لا جرم أن قياس محبة الله لهم وعلامتها هي حبّهم الله. فمن كان يحب اللهَ، بأي نسبة كانت محبته فهو محبوب عند الله بنفس النسبة. أي إنهم عشاق الله.

الصفة الثالثة: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يرون المؤمنين جميعاً أرقى منهم ولا يترددون أن يضعوا رؤوسهم تحت أقدام المؤمنين. وكلما تواضعوا لله هكذا، رفعهم الله.

الصفة الرابعة: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فلا يخضعون لهم ولا ينحنون أمامهم، بل هم في جهاد ونضال معهم دائماً. وبقدر تواضعهم للمؤمنين فهم أعزاء على الكافرين.

الصفة الخامسة: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾ في كل زمان ومكان، وحسب ظروف ذلك الزمان والمكان. إذ الجملة فعلية تدل على التجدّد، أي أنهم يتحركون ببصيرة وفراسة.

الصفة السادسة: ﴿لاَ يَخَافُونَ فِي اللّهِ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾ إذ لا يخافون إلاّ الله، فلا يحسبون لكلام الآخرين حساباً، ولا يبالون به. حيث لا يفكرون إلاّ بأمر الله ورضاه.

وهكذا فهذه الصفات هي التي تتصف بها الجماعة المثالية. فمن اتصف بها منحه الله سبحانه الأمانة المقدسة. وهذا قانون إلهي لم يتبدل ولن يتبدل.

فإن اتصف بها العرب فهم الذين يحملون الأمانة، وإن اتصف بها الترك تعطى لهم الأمانة وكذا الكرد والبوشناق والألبان.. فأيّمَا قوم اتصفوا بها فهم الحقيقون بالأمانة.

وهناك آية أخرى تضم قواعد وأسساً عامة وشاملة:

ط. ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(آل عمران:٢٦)

نعم، إن أيَّ أمة ليس لها من يمثلها محكوم عليها بالتشتت، وإن لم يربط الملوك قلوبهم بمالكهم الحق وهو الله سبحانه، فتلك الأمة لا تستوي على ساقها ولن تقف منتصبة على قدميها مدة طويلة.

وكأنما يبدو هنا ذل بعدم إظهار الإرادة من جهة، وكأن البقاء ليس إلاّ بالإرادة من جهة أخرى. فالإرادة التي تظهر وتبرز ستكون علامة حاكميتنا وشارتها، والمحافظة عليها يكون بالالتجاء إلى الله سبحانه في كل فعل. وهكذا وجدان هذه الموازنة مرتبط بالإدراك التام للقدر والإرادة "الجزئية" ولاسيما المشيئة الإلهية التي أسميناها "البعد الثالث للقدر".

لقد شاهدنا وأدركنا في الآيات الكريمة المذكورة: أن المشيئة الإلهية قد أحاطت بالحياة كلها دقّها وجلّها، فمشيئته سبحانه قد أحاطت بكل شيء. بل حتى العدم عبارة عن تجلّي المشيئة في تلك الجهة. فهو سبحانه ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾(هود: ١٠٧؛ البروج: ١٦). فلا يمكن أن يحصل شيء دون إرادته جل وعلا.

علماً بأن المشيئة الإلهية قد تتجلى رحمةً وأخرى عذاباً. كلٌّ في حينه. والآيات الكريمة الآتية تبين لنا هذا الأمر:

ي. ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾(الإسراء: ٥٤).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(ق: ١٦).

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(البقرة: ٢٨٤).

نعم، إن الأنبياء ما فتئوا يترنمون بالمشيئة الإلهية. والقرآن الكريم يشهد على هذا الترنم:

ك. ﴿قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف: ١٨٨).

بمعنى أن المشيئة الإلهية هي الأساس في كل شيء حتى أنني لا أملك نفعاً ولا ضراً لنفسي فكيف بالآخرينبـــم ينفعوني، إلاّ ما شاء الله.

والرسول الكريم ﷺ قد استسلم إلى المشيئة الإلهية استسلاما تامًّا حتى أنه قال: "سَدِّدوا وقَاربوا وأبشروا، فإنه لا يُدخل أحَدًا الجنةَ عملُه. قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني اللهُ بمغفرةٍ ورحمة".[1]

فهذا هو ميزان الرسول الكريم ﷺ. أمام المشيئة الإلهية وهكذا يعلّمنا إياه. وكل شخص عليه أن يزن نفسه وعمله بهذا الميزان.

نعم، إن كان الرسول ﷺ بهذا الوضع أمام المشيئة الإلهية، فكيف بالآخرين؟ بهذا الاستسلام وبهذا الإدراك يرتفع الإنسان إلى أعلى عليين، ويجول رأسه في آفاق السماء. ونحن نوصي الذين يرددون دوماً: "لقد عملنا من الصالحات الشيء الكثير فإن لم ندخل الجنة فمن سيدخلها غيرنا"... وأمثالها من العبارات الدالة على الغرور والكبر، نوصيهم أن يتخذوا الحديث الشريف المذكور وطور الرسول العظيم ﷺ -وهو النبي العظيم أمام المشيئة الإلهية- مثالاً ونموذجاً لهم. بمعنى أن الاستسلام للمشيئة الإلهية ينجي الإنسان من الكبر والغرور أيضاً. فالمؤمن إذن مضطر إلى قبول المشيئة أساساً في كل عمله. لأن المشيئة الإلهية قد أحاطت بكل شيء ظاهراً وباطناً، فلا شيء خارجها قط.

لا شك أن إدراك المشيئة الإلهية بمقاييسها المطلوبة يحتاج إلى مستوى معين من العلم. ومن الصعوبة بمكان لمن لم يبلغ هذا المستوى أن يفهم المشيئة الإلهية

---

(١) مسلم، صفات المنافقين ٧٦.

حق فهمها، بل حتى يكون ذلك محالاً. أليست هذه المسألة هي إحدى المسائل التي لم يدركها حق الإدراك المجتمعات التي أُرسل إليها الأنبياء جميعاً، فأعرضوا عنهم؟

والقرآن الكريم يوضح في مئات من الآيات الكريمة "المشيئة" بوجوهها المتنوعة مورداً الأمثلة من الأنبياء وأقوامهم. فهذه المسألة "المشيئة" ترد في القرآن الكريم بأبعاد كثيرة اعتقادية تصورية عملية وغيرها.

وسيدنا نوح عليه السلام مثال بيّن في هذه المسألة، إذ يبين القرآن الكريم الذين عارضوا سيدنا نوحًا عليه السلام وهوّنوا من تهديداته. فتقول الآية الكريمة:

ل. ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(هود: ٣٢) وأجابهم سيدنا نوح بالآتي:

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۞ وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(هود: ٣٤، ٣٣).

وهكذا يشير سيدنا نوح عليه السلام في جوابه هذا إلى حقيقة: أن الإرادة الإلهية هي فوق جميع الإرادات. فكأنه يريد أن يقول لقومه: إنني لست أنا المنـــزل بذلك العذاب عليكم، فلو كنت أستطيع أن أعذّب أحداً لما كان أحدٌ يجرأ على الاعتراض عليّ ولذهب سر الامتحان أدراج الرياح. بينما أنتم باستخدامكم ما وهب لكم ربكم من إرادة جزئية فإما تستسلمون أو تعرضون عنه. ولكن لو أراد الله أن يغويكم بسر الامتحان فإن كلامي لا ينفعكم حتى لو كان من جواهر ثمينة -وفعلاً كلام الأنبياء أغلى من الجواهر-. لأن مشيئته أعلى وأسمى من أيّ تقدير وتكليف. فهو ربكم، يفعل ما يشاء وكيفما يشاء، وإليه مرجعكم حتى لو لم تشاءوه. وليس لديّ إلاّ الدعوة والإرشاد والنصح. فأنا وأنتم أمام المشيئة سواء. فهذه الآية الكريمة وأمثالها تبين أشكالاً متنوعة من مواقف الأنبياء أمام المشيئة الإلهية.

فسيدنا إبراهيم عليه السلام أيضاً يعلّم قومه المشيئة الإلهية في أثناء دعوة قومه إلى التوحيد:

م. ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ٨٠).

فَسيّدنا إبراهيم يقول: إنني لا أخاف ما تشركون به، إلاّ أنني أخاف مما يشاء ربي. أي أخاف من حكمه عليّ. وإلاّ فلو انفلقت الكائنات كلها على رأسي لما أخافتني قط لأنني على يقين بأن أحداً لا يضرني بشيء إلاّ أن يشاء الله.

فهذا الدرس، درس التوحيد، الذي أورده سيدنا إبراهيم عليه السلام يؤكد على المشيئة الإلهية بوضوح.

ن. ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾(الصافات: ١٠٢) هو جواب سيدنا إسماعيل تجاه ما اقترحه عليه والده عليه السلام. ويعقب ذلك مباشرة: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾(الصافات: ١٠٢) مشيراً إلى المشيئة الإلهية. أي أنه يربط صبره بالمشيئة الإلهية. فلا يكون صبره إلاّ بمشيئته سبحانه.

إن سيدنا موسى عليه السلام يقول: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللّهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾(الكهف: ٦٩) في جوابه لسيدنا الخضر في أثناء سياحتهما وتجاه قوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾(الكهف: ٦٧).

وها نحن نشاهد مدى التشابه في تعابير الأنبياء وأقوالهم. فكلهم جميعاً ينطلقون من المشاعر والإدراك نفسه، ويقولون الشيء نفسه، ذلك لأن استسلامهم للمشيئة واحد.

س. يقول سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللّهُ آمِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٩). يقوله لأبويه عند دعوتهما إلى مصر، ولا ينسى المشيئة الإلهية.

فإذا نظرنا إلى أي نبي من الأنبياء عليهم السلام نجد أن المشيئة في سلسلة العقيدة عندهم واضحة بيّنة، وذلك من تعليم الله إياهم.

نعم، إن مشيئة الله هي كل شيء، وهي الأساس بالنسبة لإرادة الإنسان، وردُّها ليس إلاّ إشراك بربوبيته تعالى، إذ يعني ذلك إعطاء قسم من الإجراءات إلى غيره تعالى.

ثانياً: المشيئة الإلهية في الأحاديث الشريفة

آ- يروي أحمد بن حنبل "عن طفيل بن سَخْبَرَة أخي عائشة لأمّها، أنه رأى فيما يرى النائمُ، كأنه مرَّ برهط من اليهود فقال: "من أنتم؟" قالوا "نحن اليهودُ". قال "إنكم أنتم القومُ لولا إنكم تزعُمون أن عزيرا ابنُ الله**!**". فقالت اليهودُ: "وأنتم القومُ لولا أنكم تقولون ما شاء اللهُ وشاء محمدٌ". ثم مر برهط من النصارى فقال: "من أنتم؟" قالوا "نحن النصارى". فقال: "إنكم أنتم القومُ لولا أنكم تقولون المسيحُ ابنُ الله**!**". قالوا: "وإنكم أنتم القومُ لولا أنكم تقولون ما شاء الله وما شاء محمدٌ". فلما أصبح أخبر بها مَن أخبر، ثم أتي النبي ﷺ فأخبره فقال: هل أخبرتَ بها أحدا؟ قال عفَّانُ قال: نعم. فلما صَلَّوْا خَطَبَهم فحَمِد اللهَ وأثنى عليه ثم قال: إنّ طُفَيْلاً رأى رؤيَا فأخبر بها من أخبر منكم وإنكم كنتم تقولون كلمة كان يَمْنَعُني الحياءُ منكم أنْ أَنهاكم عنها، قال: لا تقولوا ما شاء اللهُ وما شاء محمدٌ".[١]

نفهم من هذا الحديث الشريف أن المشيئة الإلهية هي الأساس، ولا دخل لأحد فيها غير الله سبحانه، بل إن نية الإنسان بكون غير الله سبحانه نافعًا وضارًّا يجرّ ذلك إلى الكفر والإشراك.

ب- مثال آخر حول الموضوع نفسه

"عن ابن عباس أن رجلا قال للنبي ﷺ ما شاء الله وشئتَ. فقال له النبيُّ ﷺ أجَعلْتَنِي واللهَ عَدْلاً؟! بل ما شاء اللهُ وَحْدَه".[٢]

---

(١) المسند لأحمد بن حنبل، ٧٢/٥.

(٢) المسند لأحمد بن حنبل، ٢١٤/١.

فالرسول ﷺ يحمل توحيداً واضحاً في التصرف الإلهي بحيث لا يدع أحداً مهما كانت نيته إلاّ وينبهه على خطئه في عدم إدخال أحد في التصرف الإلهي قط.

ج- عَنْ أَنَسٍ قَالَ "كان رسول الله ﷺ يُكثِر أن يقول يا مُقلِّبَ القلوب ثّبتْ قَلْبي على دينك. فقلتُ: يا رسول الله آمَنَّا بك وبما جئْتَ به، فهَلْ تخاف علينا؟ قال: نعم إن القلوب بين أُصْبُعَين من أصابع الله يقلِّبُها كيف يشاء".[1]

ونجد سبب إكثاره ﷺ من هذا الدعاء في هذه الرواية:

"عن شَهْرُ بن حَوْشَب قال قلتُ لأمّ سلَمة: يا أمَّ المؤمنين ما كان أكْثرُ دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندكِ؟ قالتْ: كان أكثرُ دعائه "يا مُقلّب القلوب ثبّت قلْبي على دينك". قالتْ فقلتُ: يا رسولَ الله ما أكثرَ دعاءك "يا مُقلّب القلوب ثبّتْ قلبي على دينك"؟ قَالَ: يا أمَّ سلَمة إنه ليس آدميٌّ إلاّ وقلبُه بيْن أُصبُعيْن مِنْ أصابع الله، فَمَنْ شاء أقامَ ومَن شاء أَزاغ".[2]

وفي رواية نواس بن سمعان "قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: ما مِنْ قلْبٍ إلاّ بيْنَ إصبعيْن مِنْ أصابع الرّحمن، إن شاء أقامَه وإنْ شاءَ أزَاغَهُ".[3]

وفي الحقيقة أن الله سبحانه يعلّمنا دعاءً مثل هذا في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾(آل عمران: ٨).

ولا شك أن جميع الأدعية تثبت المشيئة الإلهية، حيث إننا نعتقد مقدماً أن الله قادر على استجابة دعواتنا كما أننا نعتقد أنه هو الذي يلهمنا الدعاء إن شاء. وبهذا يكون كل دعاء بمعنى الاعتراف بالمشيئة الإلهية والتي تمثل أحد أبعاد القدر. ولقد وقفنا كثيراً عند هذه المسألة لعلاقتها القوية بالتوحيد.

---

(١) الترمذي، القدر ٧.

(٢) الترمذي، الدعوات ٨٩.

(٣) ابن ماجة، المقدمة ١٣.

ثالثاً: مسألة الأمر الجبري والأمر الشرعي

سنتطرق إلى مسألة أخرى تتعلق بالموضوع نفسه، جاعلين المسألة المعقدة سهلة كي يفهمها القاصي والداني. والآية الكريمة الآتية يمكن أن تكون مقدمة للموضوع الذي نبحثه، وهي: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾(الأعراف: ٥٤).

نعم، فكما أن الأمر والخلق يخصه تعالى فالحكم والخلق له وحده. وأمر الله سبحانه على قسمين:

الأول: الأمر الكوني، الأمر الجبري أو الأمر التقديري.

الثاني: الأمر الديني أو الأمر الشرعي.

والأمر الجبري هو الحاكم في الكون، فما يخلقه سبحانه يخلقه على الأمر الجبري. فلا دخل لأحد قط في هذا الأمر. فالكل مضطرون إلى الطاعة والخضوع والانقياد لهذا الأمر. فهو سبحانه مالك الملك، يتصرف في ملكه كيف يشاء، وتصرفه هذا يجعلنا خاضعين منقادين، لا حول لنا ولا قوة تجاهه.

أما الأمر الديني أو الشرعي، فهو أيضاً موجّه إلينا، ولكن إنفاذ هذه الأوامر وعدم إنفاذها منوط بالإرادة التي أُعطيت لها صلاحية نسبية مع أنها ليست لها وجود ذاتي.

وعندما نفهم هذين الأمرين نفهم معاني ومحتوى "الأوامر" الواردة في القرآن الكريم والتي يبدو فيها اختلاف ظاهري.

فكيفما تتعلق الإرادة والمشيئة الإلهية بالآيات التكوينية (أي القوانين الكونية) تظهر الأشياء والحوادث وفقها إلى الوجود. أما في الأمر الشرعي، فقد أمر سبحانه بما يريد عمله وبما يرضى عنه. ففي كِلا الأمرين هناك مشيئته ورضاه.

فعبادة الملائكة وأعمالهم هي بمشيئة الله سبحانه، وكذا الأنبياء. والأعمال

الصالحة التي يقوم بها العباد والصالحون أيضاً مثل ذلك. فالله ﷻ راضٍ عن كل ذلك. ولكن هناك أمور لا يرضى عنها رغم أن في أساسها مشيئته، كالكفر والآثام والسيئات بأنواعها. فالآيات الكريمة الآتية تشير إلى هذا النوع من الأمر: ﴿وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾(الزمر: ٧)، ﴿إِنَّ اللّٰهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسدِينَ﴾(القصص: ٧٧)، ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(الأنعام: ١٤١)، ﴿إِنَّ اللّٰهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة: ١٩٠)، ﴿إِنَّ اللّٰهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾(النساء: ٣٦).

نعم، إن الله سبحانه يخلق الفساد، وخلقه هذا إنما يكون بتعلق مشيئته به، ولكن لا يرضى عن الفساد. والأمر هكذا في جميع أنواع السيئات. فإذا ما نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية نفهم بعض الآيات الكريمة بصورة أوضح. ولنُلْق نظرة من هذه الزاوية إلى الآية الكريمة الآتية:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾(الإسراء: ١٦). أي إذا أردنا أن ندمّر بلدة أو حَضارة نسلط عليهم سفهاءهم وأسافلهم بل أظلمهم يذيقونهم أشد العذاب بعد أن يغتصبوا منهم رزقهم، حتى اللقمة من فمهم. ولكن هؤلاء هم الذين يجعلون أولئك الظلمة على رؤوسهم أيضاً بعد أن تعوّدوا على كل نوع من أنواع المهانة والذل. وفي الظاهر أنهم انتخبوا هؤلاء بإرادتهم، وجعلوهم رؤساء عليهم. ولكن هل في الحقيقة هكذا؟

والمترفون هم السفلة والمنحطون روحاً ومعنىً، ولكنهم تولوا القوم فأصبح قدَر الأمة السفالة ولهم السفاهة. وذلك بتوليهم أمر الأمة وتمكنهم من زمام الحكم. فهؤلاء المترفون يستغفلون الناس ويضلونهم، فإذا ما بلغ الأمر إلى هذا الحد فإن تلك الأمة أو الحضارة قد آن إذن أوان انهيارها.

يبدو أن الأمر هنا هو أمر تكويني. فهو ليس أمراً شرعياً. لأن الله سبحانه لا يأمر قطعاً المترفين بأمر شرعي ليقترفوا ما يقترفون من الموبقات. والدليل

على ذلك ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾(الأعراف: ٢٨). أما التوفيق بين الأمرين في الآيتين الكريمتين فهو أن الأمر في الأولى أمر تكويني وفي الثانية أمر شرعي، كما هو في الأمر الوارد في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد: ١١).

فإذا ما دب الفساد في الكيان الباطن وتساقطت نجوم سماء الروح، ودار سعد الحياة الاجتماعية والحضارة عكس دورانه، انكفأت الأنوار التي كانت تبهر الأنظار وترجع القهقرى إلى مواضعها، وتنطفئ وتذهب.

ولهذا لا بد من إدراك كلٍّ من الأمرين إدراكاً جيداً.

ولقد ضلت الجبرية لعدم قدرتهم على التمييز بين هذين الأمرين التكويني والشرعي. حيث خلطوا بينهما فأنكروا الإرادة الإنسانية. والمعتزلة بدورهم اتخذوا الإرادة أساساً لهم وقالوا: العبد خالق لفعله. فزلّوا عن سواء السبيل. أما نحن فنأخذ الجوانب الحسنة من كلا الطرفين، ونجمعهما معاً على صراط مستقيم ونقول: إن المشيئة الإلهية هي الأساس في كل من الأمرين التكويني والشرعي، ولكن في الأمر الشرعي أعطيت لإرادة العبد مرتبة وهي عدُّها كشرط عادي. فإن لم تتعلق بها المشيئة فلا يوجد شيء قطعاً. ولكن الأشياء التي لها وجود خارجي ليست على هذا النمط. حيث تتعلق المشيئة الإلهية حتى بالأمور السيئة والقبيحة. إلاّ أنه ﷻ لا يرضى بها. ولهذا يعاقب العبد على ما ارتكب من سيئات.

وترتبط الهداية والضلالة بالمشيئة الإلهية أيضاً. والقرآن الكريم يوضح هذا في كثير من آياته: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنعام: ١٢٥).

تهبّ نسائم الإيمان وتلامس برقتها وعذوبتها شغاف قلب الإنسان ويجد حلاوة السعادة، ويمنحه ذلك الإيمان نشوة ما بعدها نشوة، وكلما ازداد

الإيمان ازداد انشراحاً وحبوراً حتى يحظى بذروة كمال الإنسانية ويصبح بكلّه مثالاً للحسن والمروءة والفضيلة. فلا شك أن الإنسان ليس هو بذاته ارتقى هذا المرتقى بل الذي أوصله إليه هو الله القادر على كل شيء. فهو الذي هداه ورقّاه مرتبة مرتبة في سُلّم الهداية حتى أبلغه قمة الهداية. بينما الكثيرون ممن مُنحوا عقلاً وذكاءً لم يحظوا بالهداية ويعيشوا عيش البهائم، بمعنى أن سبب الهداية والضلال غير مربوط بالاستعداد والقابلية أو الإرادة الإنسانية، بل الهداية أمر متعلق بالمشيئة الإلهية.

وبهذا يتبين أننا لسنا في موضع يتيح لنا فرصة المداخلة في مواقع الأشياء والحوادث، ولهذا يمكننا القول: أننا لسنا إلاّ سبباً واحداً ووسيلة واحدة في الخلق. نعم إنه سبحانه لا يُوجِد شيئاً إلاّ وقد أراده، فلا شيء في الوجود إلاّ بإرادته. فلا قدرة لغيره بجعل غير الممكن ممكناً والممكن غير ممكن. فقوته سبحانه ذاتية، ولهذا نراه سبحانه هو ذو القوة المتين، القوي العزيز. فكما وهب لنا القوة على القيام بالعمل فقد منحنا أيضاً استعمال إرادتنا بتلك الوجهة التي نريد. إلاّ أن المشيئة والإرادة تخصه هو سبحانه رغم أنه منحنا الإرادة. والوضع لا يختلف شيئاً في الهداية والضلالة. فلا هادي ولا مضِلّ إلاّ هو سبحانه.

وهو الذي أدخل دافع قتل الرسول ﷺ في قلب عمر فسار إليه وهو عازم على قتله. هذا السير الذي ظاهره كأنه ضلالة وإذا به يدخله في أحضان الهداية. وهو الذي أبقى الشاعر الأعشى في الضلالة جاعلاً الخمر سبباً.. وأمثال هذه كثيرة تعد بالمئات بل بالألوف.. ترى هل يبقى أمام الإنسان بعد ذلك شيء غير الاعتراف بأن الهداية والضلالة بيده سبحانه وتعالى؟ نعم، إن الهداية والضلالة بيده سبحانه وتعالى.

بجنب الإقرار بجميع ما ذكر، فقد وضع سبحانه في ماهيتنا إرادة مجهولة الماهية حيث لا عبث في إجراءاته، وأنشأ/وينشيء على هذه الإرادة المجهولة الماهية جميع ما فعلناه/ونفعله في الماضي والمستقبل. فضلاً عن أنه قد وضع

تصميم وتخطيط هذا البناء مسبقاً في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الإنسان. فليس لنا إذاً إلاّ طلب الهداية منه سبحانه. لأنه كما ذكرنا آنفاً في الآية الكريمة، من يرد الله أن يهديه يشرح صدره ويرغّبه في الإسلام ويظهر له وجه الحقيقة المليح. والإنسان بدوره يجد دافعاً واشتياقاً لطلب الحقيقة. ومن أراد الله ضلاله يجعل صدره حرجاً وضيقاً. فلا يعد يرضى بأي أمر للإسلام ويعرض عن التذكير والنصيحة: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۞ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾(المدثر: ٤٩-٥٠) حتى تكون كل خطوة يخطوها تبعده عن الإسلام.

وليس فيما ذكرناه إلاّ شرط عادي لا غير، وهو إرادة الإنسان وتردده بالقيام بعمل ما أو عدم القيام به. وحقّاً إنّ عدّ الإنسان نفسه حراً في وجدانه يبين هذا الأمر بوضوح وبذلك يعدّ نفسه مسؤلاً وجداناً. فالإرادة تؤدي وظيفة الحجر الأساس في الأفعال. والله سبحانه ينشيء كل ما يريد خلقه على هذا الحجر الأساس.

هب أنكم تريدون تعديل أوضاع هذه الدنيا، فاستعملتم إرادتكم التي تشعرون بوجودها في وجدانكم إلى مرحلة معينة في ذلك الجانب، وصرفتم ثروتكم ومساعيكم في تلك الجهة حتى بذلتم كل ما لديكم من طاقة ومال في ذلك السبيل واختبرتم جميع الطرق المؤدية إلى ذلك الهدف، ولم تدّخروا جهداً واستنفدتم طاقاتكم. أي أفرغتم كل ما يُنتظر منكم من إرادة في ذلك السبيل. وعند ذلك ستمدكم إرادة الله سبحانه بنصره وسيمنحكم ما تريدون من وسائل. نعم، سيتفضل سبحانه على إرادتكم -المجهولة- كثيراً جداً من الإنعام والأفضال. وهذا قانون إلهي لا يتبدل قط.

فعليكم أن تدركوا ما يترتب عليكم من أعمال وفق هذا الإدراك، وما تنتظرونه منه سبحانه تنتظرونه وفق هذا الإدراك. وإذا ما تفضل سبحانه عليكم ببعض إنعاماته وإكراماته من دون أن تكونوا أهلاً لها، فهذا لطف وكرَم منه سبحانه -فهو لا يُسأل عمّا يفعل- ولكن لا تُبنى الأعمال على

الألطاف والإكرامات. نعم إن ما يترتب عليكم وعلى إرادتكم ضمن دائرة الأسباب، عليكم إنجازه، ثم سترفعون أيديكم وتطلبون منه تعالى. وإذا أخذنا المسألة من بدايتها، فإن الله سبحانه سيغيّر ما بكم من شقاء ويملأ الأرض عدلاً وتستقر الأمور على الصلاح، بعد أن تؤدوا ما يترتب عليكم من الوظائف والأعمال.

ألا يكون الأمر هكذا؟ إن الله سبحانه ينعم بالشهادة على مَن يجود بروحه في سبيله. ثم تتوالى النعم من جنة النعم ومشاهدة جمال الله جل جلاله ونعم أخرى لا تعد ولا تحصى. وكأنه يتفضل بمقاولة وعقْد بيْنه وبين الإنسان.

ولهذا لا تنتظروا نـــزول المسيح ولا مجيء المهْديّ المنْتظَر من قبْل أن تؤدّوا ما عليكم من أعمال، فلا يغيّر سبحانه قوانينه وعاداته الإلهية من أجلكم والتي لم يبدّلها حتى لأنبيائه الكرام. نعم، الطريق هو هذا، منذ القدم.

فقد ظل النبي ﷺ طاوياً على الجوع والعطش، وانكسرت ثناياه في الحرب، وجرح خده، وأُدميت قدماه، ولاقى ما لاقى من العذاب والعنَت. والأمر نفسه وقع لمن كان حوله من الصحب الكرام. فلقد مستهم البأساء والضرّاء حتى قال الجميع معاً "متى نصر الله؟". وعندها نـــزل النصر الإلهي وقيل لهم: إن نصر الله قريب. فالآية الكريمة الآتية توضّح لنا هذه الحقيقة:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾(البقرة: ٢١٤).

أي لما نفد كلُّ شيء، فلا لقمة تسدّ الرمق ولا جرعة ماء تشفي الغليل ولا قطعة حصير ليضَع الإنسان عليها جنبه... في هذه الآونة يرد من الغيب بلسان الحوادث: إن نصر الله قريب. أنتم ستبذلون إرادتكم إلى أن تسمعوا هذا الصوت. كالشمعة تشتعل وتشتعل -وهي ما يترتب عليها- حتى إذا انتهت آخر ذبالة فيها إذا بنصر الله يأتي. وأنتم كذلك تبذلون قصارى

إرادتكم الجزئية وإلى آخر نقطة فيها، عندها تعمل الإرادة الكلية عمَلها فيتبدل الذل إلى عزّ وسؤدد، ويتبدل الإدبار إلى إقبال مشرق.

والآن هل تعتقدون أنكم حقاً بذَلتم كل إرادتكم، وبكل ما أوتيتم من طاقة؟ فإن كان الجواب: نعم، فإني أُبشركم: ثقوا واطمئنّوا أن الله الذي بيده مقاليد السموات والقادر على كل شيء سيمدّكم بنصره ويحيق المكر السيّئ بأهله بإرادته المطلقة، ويحفظكم من كل مكروه وسوء. إن عادة الله هي هكذا. فثقوا بالبشارة مادمتم على ثقة من أنكم أدّيتم ما عليكم من واجبات ووظائف.

نختم ما قمنا به من تحليل حول القدر والمشيئة الإلهية بالجملة الآتية:

إن الله سبحانه يعلم بعلمه المحيط بكل شيء كل ما سنفعله في الآتي، ويعيّن ما يعْلمه ويقدّره ويسجله في اللوح المحفوظ على شكل خطة. ثم يسجل الملائكة الكرام أعمالنا في كتب. ويكون الكتابان مطابقين تماماً. ولا شك أن مشيئة الله هي النافذة في كل ذلك. فنحن أهل السنة والجماعة نعتقد بأنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

٤. القضاء والقدر من حيث الخلق

إن الله خالق كل شيء. فكل "شيء" مخلوقه، ونحن وأعمالنا داخلون في ذلك "الشيء". ولهذا ورد في القرآن الكريم:﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات:٩٦). وفي حديث شريف يقول الرسول ﷺ "إن الله تعالى صانعُ كل صانع وصنْعته".[1]

أيّ شيء تعملون؟ تنحتون الحجر أو الرخام، فخالقكم وخالق ذلك العمل هو الله. والذي منحكم مَلَكة التفكر، ثم جعلكم تتفكرون ثم بعد

---

(١) أمالي المحاملي، ص: ٣٠٩؛ كنـــز العمال للمتقي، ٢٦٣/١.

ذلك جعلكم تعبّرون عما تتفكرون به... هو الله أيضاً. فما حصة إرادتنا إذن؟ وما وظيفتها في مثل هذه الأمور؟

إن ما نسميه "الإرادة" صغيرة صغيرة إلى درجة ضئيلة جداً، بحيث مهما توسعت آفاق نظراتنا وتعمقت لا تستطيع رؤيتها ولا تمييزها، لأن ليس لها وجود خارجي. وهي صغيرة إلى حد لا يمكن إيجاد علاقة بينها وبين ما يترتب عليها من أعمال حسب قاعدة "تناسب العلية". نعم إن إرادتنا مهما كانت صغيرة فإن أفضال الله علينا وألطافه كبيرة وعظيمة.

الخالق هو الله... فالقرآن الكريم والسنة النبوية والوجدان الحيّ اليقِظ شهود على هذا. ولهذا فالرسول ﷺ ومن ورائه أمته الذين نحن منهم، نسأله تعالى أن يكون ما قدّره الله لنا خيراً، استناداً إلى رحمته تعالى لا إلى إرادتنا نحن. ولأجل توضيح هذه المسألة فحسب أُورد دعاءً أو دعاءين:

"اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تَقْدر ولا أَقْدر، وتَعْلم ولا أَعْلم، وأنتَ علام الغيوب. اللهم إنْ كنتَ تعلم أن هذا الأمرَ خيْرٌ لي، في ديني ومعاشي وعاقِبةِ أمري، أو قال: عاجلِ أمري وآجله، فاقْدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنتَ تعْلم أنّ هذا الأمر شر لي، في ديني ومَعاشي وعاقبة أمري، أو عاجل أمري وآجله، فاصْرفه عنيّ واصرفني عنه، واقدر لي الخيرَ حيثُ كان، ثم رضّني به".[1]

فالرسول ﷺ يعلمنا في دعائه هذا بعض أسرار القدر وأنه لا يوصلنا إلى الخير ويدفع عنا الشر إلاَّ الله القدير. فهو الذي يبعدنا عن الشر بإذاقتنا آلام السيئات في وجداننا، بينما في الخير يرسل نسائم رحمته في وجداننا فننشرح ونسعى بكل كياننا لنحتضن ذلك الخير. وفي الحقيقة أنه هو وحده "بيده الخير" فلا يقدر سواه على جلب الخير أو إبعاده عنا، ولا احتمال في ذلك لغير ذلك قط.

---

(١) البخاري، التهجد ٢٥؛ ابن ماجة، الإقامة ١٨٨.

إن الله سبحانه هو الذي صرف البلاء الذي نـــزل على سيدنا يوسف ﷺ ولن نبحث عن الـــ﴿بُرْهَانَ﴾ الذي رآه هنا، إلاّ أننا نقول: أن الله سبحانه قد حافظ على نبي عظيم مخلَص ووقاه من شر امرأة. ولهذا ذكر في القرآن الكريم: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾(يوسف: ٢٤). فهنا يدخل اللطف والإحسان الربانيّ بين السيئة وميل إرادة الإنسان، وينجي الشخص من الميل إلى الشر. إلاّ أن هناك أمراً واحداً وهو إن إخلاص يوسف ﷺ هو الذي جلب ذلك اللطف والإحسان لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾(يوسف: ٢٤). ويوضح هذا المعنى حديث الرسول ﷺ ذو المعنى العظيم والمغزى العميق:

"ألا وإنّ في الجسَد مضغةً إذا صلحتْ صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلبُ".[1]

نعم، إن بلوغ القلب الإخلاص، وجيشانه بحب الله وإجلاله، يعدّ وسيلة لدفع البلايا التي تتعاقب في النـــزول.

وفي حديث يرويه البخاري أيضاً أن الرسول ﷺ يذكر في أحد أدعيته أن الله خالق الأفعال كما هو خالق كل شيء. وذلك في دعاء:

"اللّهم لا مانع لما أعطيتَ ولا مُعطِيَ لِما منعتَ ولا ينفعُ ذا الجدّ منك الجدُّ".[2] ففي هذا الدعاء ندرك أنه لا رادّ لقضاء الله وحكمه سبحانه، لذا فليس لنا من الأمر شيء إلاّ الميل والتوجه نحوه.

وفي الحقيقة أننا نمتلئ ثقة عظيمة وشعوراً بالاطمئنان بأن الله هو خالق أفعالنا أيضاً. فهذه بشارة عظيمة وإيمان قوي حيث لا يدعنا خالقنا مع أفعالنا، فهو سبحانه في كل آن وحين أقرب إلينا من أنفسنا. ترى ما الذي يفرح الإنسانَ ويشرح صدره أكثر من هذا؟ فنحن بهذه المشاعر نرمى أنفسنا

---

(١) البخاري، الإيمان ٣٩.

(٢) البخاري، القدر ١٢.

في أحضان الرحمة ونفوّض جميع أفعالنا إليه تعالى. فهذا التسليم المطلق منّا لله وسيلة لجلب المشيئة الإلهية كالموجة الهادرة تدفعنا إلى بحر المعرفة الإلهية. فنحن ننتظر إرادته ومشيئته ونعلق به آمالنا ورغباتنا. نرجو ألاّ يخيبنا المولى القدير في انتظارنا هذا (آمين).

ولقد ذكرنا في مستهل الموضوع أن الهداية والضلالة من الله تعالى ووجودهما مرتبطان بمشيئة الله وخلقه. والقرآن الكريم يوضّح هذه المسألة توضيحاً وافياً إلاّ أننا نذكر على سبيل المثال آية أو آيتين فقط:

﴿مَنْ يَهْدِ اللّٰهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾(الكهف:١٧)، ﴿مَنْ يَهْدِ اللّٰهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾(الإسراء:٩٧)، ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللّٰهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللّٰهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾(الزمر:٣٧).

من يهد الله تنسكب أشعّة الهداية في قلبه حتى تستقر فيه. ومن أراد أن يضلّه فلا يدفع عنه الضلالةَ أحدٌ حتى لو اجتمع الخطباء والوعاظ معاً وشرحوا كل ما يلزم إنقاذه من الضلالة فإنهم لا ينقذونه، رغم أنهم يؤجرون على عملهم. لأن القابلية للهداية قد سُلبت منه. فلا جدوى من أي عمل. أَعتقدُ أنّ المنظر العام لحاضرنا مثال كاف ووافٍ لهذا.

وهنا يجب ألاّ نُبْعِدَ عَن أنظارنا أمراً وهو: أن الله خالق الهداية والضلالة، إلاّ أنه يخلقهما وفق الإرادة رغم أنها اعتبارية. فالعبد يطلب والله سبحانه المتصف بإسمَي "الهادي" و"المضلّ" يخلق الهداية والضلالة، ولذا فالعبد بالذات هو الضال. ولهذا فنحن في الصلاة وفي قراءتنا لسورة الفاتحة نقول: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾(الفاتحة:٧)، والرسول ﷺ يقول: "إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى".[١]

وحيث إن الموضوع بلغ بنا إلى هذا الموضع فلا بد أن نقف قليلاً لنتأمل في مراتب الهداية ومعانيها كي نحول دون الوقوع في الفهم الخاطئ.

---

(١) المسند لأحمد بن حنبل، ٣٧٨/٥.

الفصل الثالث

علاقة

القدر – الإرادة – الهداية

نرى أن الهداية على مرتبتين أو نوعين حسب بحثنا:

الأولى: الهداية الجبرية الجارية وفق متطلبات الشريعة الفطرية.

الثانية: الهداية التي تؤخذ فيها إرادة الإنسان بنظر الاعتبار.

١. الهداية الجارية وفق متطلبات الشريعة الفطرية

إن كل موجود عند توجهه نحو الهدف أو الغاية المقدرة له وفق قوانين الخلق والفطرة يسلك سلوكاً إجبارياً. والأصح أن نسمى هذا السلوك: "السَّوْق الإلهي". فأول خلق الإنسان ونموه علَقةً في رحم الأم وتحوله من مرحلة جنينية إلى أخرى، كل ذلك يجري حسب هذا السوْق الإلهي. والأمر نفسه جار في المخلوقات جميعها، إذ كلها تجري وفق مصالحها، وهذا معلوم لدى الجميع في أيامنا هذه. ورغم أن الطبيعيين والماديين يطلقون على هذا السَّوْق الإلهي "الغريزة" أو "السَّوق الطبيعي" فإن عالم الوجدان يرى أنه سَوْق إلهي.

وفي الحقيقة أن "دليل الهداية" هو أحد أدلة التوحيد، وهو موضوع مستقل بذاته يربط كل ما يجري على وفق هذا السَّوق الإلهي والهداية الربانية بوجود الله ووحدانيته.

إن كل شيء ينجز ما أُنيط به من وظيفة بهذا السَّوق الإلهي، من الذرات إلى المجرات. أي من الألكترونات الدائرة حول نواة الذرة إلى السيارات

والمجرات السابحة في الفضاء، فكل شيء يسير وفق الخط المرسوم له من قبل الله سبحانه، ويسعى للهدف المخطط له دون أن يحيد عنه قيد أنملة.

ترقد الدجاجة على بيضتها وتنتظر انتهاء مدة الحضانة صابرة على الجوع والعطش وشدة الحرارة ولا تترك موضعها قط. تُرى هل هي على علم عن ماذا ستفقس البيوض؟ ولِمَ تعاني هذه المعاناة كلها؟ علماً أنها بعد مدة ستزاحم أفراخها على الحبات الملتقطة! جواب هذه الأسئلة واضح بالنسبة لنا وهو أن الله يسوقها إلى هذه الجهة.

ثم أن الفرخ داخل البيضة ما أن يحين موعد خروجه إذا به ينقر جدار البيض من الداخل بمنقاره اللين الطري وتفقس البيضة ويخرج إلى حياة رحبة أكثر بكثير من حياته داخل البيضة، فمن أين له العلم والشعور بهذه الحياة الجديدة حتى يبذل قصارى جهده للخروج إليها من البيضة؟

وكذا الطفل ما أن يولد حديثاً حتى يتلهف إلى صدر أُمه ليمص ثدييها. ثم مَن الذي ملأ صدر تلك الأم بالحليب الخالص، ثم مَن الذي دلّ الطفل على أن الحليب في الثدي؟ ومَن علّم مص الثدي للطفل. والجواب عن هذا وأمثاله من الأسئلة هو الجواب الوحيد: كل ذلك يحدث بسَوْق إلهيّ.

والقرآن الكريم يذكّرنا في كثير من مواضعه بهذا السَّوق الإلهي نذكر منها:

آ- ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾(النحل: ٦٨).

نعم إن جماعات النحل قد تعلمت صناعة العسل بمثل هذا الإرشاد والتعليم والهداية. فالله ﷻ يوحي إلى النحل أن تتخذ من الجبال والأشجار بيوتاً لها، تأوي إليها، وتتعلم من هذا الوحي صناعة قرص العسل... والهندسة التي تستعملها في صناعة قرص العسل والخلايا التي لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون بمعرفة النحل، أي أن تلك الهندسة توحَى إليها وحياً.

ثم أن النحلة تنتقل من زهرة إلى أخرى لتجتني منها الرحيق. ولأجل ألاّ تضل الطريق تستعمل خطة معينة. فتترك في المواضع التي تمر عليها آثاراً خاصة بها. وتعود إلى خليتها متتبعةً نفس الآثار، وفي النهاية تضع ما جمعته من رحيق الأزاهير في خلاياها.

لا شك أن إدارة خارقة تبدو واضحة في الخلية. نعم إن سَوقاً إلهيًّا يشاهد هنا بحيث إن أي دولة عظيمة عريقة محكمة النظام لا تضاهي إحكام تلك الإدارة في خلية النحل.

هناك النحلة الأم تسيطر على إدارة الخلية، وهناك الذكور بعدد قليل للتلقيح، وبقيتها العاملات التي لا تفتأ تعمل دون توقف مؤدية وظائفها على أفضل وجه.

وعندما يحين موعد وضع البيوض فإن النحلة الأم (الملِكة) تضع بيُوضها في كل خلية من الخلايا، ويؤدي العدد القليل من الذكور وظيفتهم الفطرية. وهنا تنتهي مهماهم، ويظلون في الخلية كطُفَيْلِيّين ليس لهم عمل سوى إلتهام ما جني من عسل. فالنحلة الأم تستبقي عدداً منهم وتفني البقية الباقية من ذلك. والعدد الباقي منهم سينجزون أعمالهم الفطرية في السنة المقبلة.

فكما لا يُسمح للذكور الطفيليين بالحياة كذلك لا يسمح لأحد من النحل الأجانب بالدخول إلى الخلية، ونشاهد فضلاً عن هذه الإدارة الحازمة، تنظيفاً بنفس المستوى من الجد والحزم. فمثلاً النحلة العاملة التي أتت بالرحيق والطلع إن لم تكن على نظافة تامة –كأن يكون في أقدامها شيء من الطين– لا يُسمح لها بالدخول. أو أن نحلة واحدة إن لم تطع الأوامر وأظهرت نوعاً من الفوضى فإنها تُطرد حالاً من الخلية.

تُرى مَن علّم النحلَ هذه الأمور وهي لا تملك إلاّ دماغاً صغيراً جداً؟ مَن علّمها هذا العلم، بحيث إن ما تصنعه من الخلايا وتنتجه من العسل قبل خمسين مليوناً من السنين، هو نفسه ما تصنعه وتنتجه في الوقت الحاضر. إن النحلة لم

تتكامل تدريجياً، بل هي كاملة منذ نشأتها، ومنذ خلقتها فهي عالمة بعملها وهي تستمر هكذا على مر العصور. فبدءاً من حكمة وضع هندسة الخلية على شكل مسدس وليس على شكل مثلث أو مربع إلى صناعة العسل، ذلك السائل اللذيذ الذي فيه شفاء للناس، في كل مرحلة من مراحل هذه العمليات سَوق إلهي حتى إننا لنشعر وكأن نفحات الوحي والإلهام تسير جنباً إلى جنب مع كل عملية من عملياته. نعم كأننا نستشعر بذلك ولكن النحلة تعمل كل عملها وهي لا تستشعر بنسائم هذا الإلهام قطعاً، بل تعملها بسَوق غير شعوري. نعم إنه لا يمكن إيضاح عمل النحل إلاّ بالسَّوق الإلهي.

نخلص من ذلك أن الذي علّم صناعة العسل للنحل هو الله ﷻ، وعلّم سبحانه أيضاً واجبات كل من المِلكة والذكور والعاملات، وهو الذي نصّب النحلة الأم مِلكة حاكمة على الخلية والأُخريات خاضعات مطيعات لها.

ب- النمل أيضاً يحظى بإلهام إلهي. فالآية الكريمة الآتية تبيّن لنا هذا:

﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾(النمل: ١٨).

كيف قالت النملة ما قالت؟ لا بد أن للنمل لساناً خاصاً به، ونمطاً معيناً في الحوار. وعلماء الحيوان الحاليون يرددون الآتي:

مَسْكنان للنمل. أحدهما صغير والآخر كبير في الطرف الآخر من خندق صغير، نقلت إحدى النملات من مسكنها إلى مسكن آخر. بعد صمت وسكون لم يدم طويلاً، خرج النمل الذي أضاع فرداً من أفراده متوجهاً إلى المسكن الآخر، عابراً الخندق على عصا ملقاة عليه، وأغار على المسكن الآخر.

والآن مَن الذي أخبر عن ضياع هذه النملة ووجودها في المسكن الآخر؟ والإختصاصيون يفسرون الأمر هكذا:

إن النملة التي وضعت في المسكن الآخر أخبرت صديقاتها بالخفاء وذلك بإحداثها موجات كهرومغْناطِيسية عما جرى عليها من أحوال وعن

موضعها الحالي بإحداثيات معينة، وبعد هذه المحاورة التي تمت بخفاء تام استنفرت أصدقاءها لإنقاذها فشنّوا هجومهم على المسكن الآخر.

بمعنى أن النملة تتكلم.. وقد علّم ﷻ سيدنا سليمان لغة النمل. ولهذا تبسم سليمان ضاحكاً من قولها[1] وتوجه شاكراً إلى ربه تحديثاً بهذه النعمة العظيمة.

إن للنمل نظاماً اجتماعياً شبيهاً بالنظام الجمهوري، فالجميع يكدون لخزن الغذاء في مسكنهم وليست هناك نملة كسْلانة قط. فإذا ما كان حمل الغذاء ثقيلاً عليها تستدعي صاحباتها فيتعاونّ في نقل الغذاء إلى المسكن، والنملات في سعي دائب طوال الصيف، وفي أثناء الشتاء تكتفي بالغذاء المدخر، وأحياناً تَدبُّ الرطوبة إلى حبوبها المخزونة، فتحتاج إلى عرضها إلى الشمس. وبعد جفافها تنقلها إلى المسكن مرة أخرى، وقد يحدث أحياناً نمو في بعض الحبوب، فتقوم حالاً بتقسيمها إلى قسمين، وإذا ما نما أحد الأقسام تقسمه مرة أخرى إلى قسمين، وهكذا تحافظ على الحبوب للخزن في إطار الاستفادة منها، حيث الحبوب التي نبتت لا تفيدها بشيء.

مَن علّم النمل كل هذا؟ مَن علَّمها هذه المسائل الدقيقة المتداخلة وهي تحمل جسماً أصغر من حجم حافظتنا في الدماغ؟

وجوابنا واضح كما هو الحال في الأسئلة الأخرى: إنه الله سبحانه الذي ألهم النمل كل هذه الأمور، والنمل يساق بهذا الإلهام الإلهي.

"عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قرَصتْ نملةٌ نبيًّا من الأنبياء، فأمر بقرْيةِ النمل فأُحرقتْ، فأَوحى اللهُ إليه: أنْ قرَصتْك نملةٌ أَحْرقتَ أمّةً مِن الأُمم تُسبِّحُ".[2] فالنمل كما هو مشاهد أمة بذاتها، مسبحات لله بلسانٍ لا نفقهه.

---

(١) انظر: سورة النمل، الاية: ١٩.

(٢) البخاري، الجهاد ١٥٣.

وفي رواية الحاكم في مسنده يقول الرسول ﷺ:

"خرج نبي من الأنبياء يستسقي، فإذا هو بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء. فقال: ارجعوا فقد اُستُجيب لكم من أجل شأن النملة".[1]

فالنملة تعمل كل هذا بسَوق إلهي وإلهام منه تعالى.

ج- يلفت القرآن الكريم نظرنا إلى الجهة الاضطرارية للقدر وكون الحيوانات أمماً أمثالنا:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(الأنعام: ٣٨).

يروي أبو داود عن رسول الله ﷺ حديثاً أنه ﷺ قال: "لولا أنّ الكلاب أمّةٌ من الأمم لأمرتُ بقتلها كلِّها ولكنِ اقتلوا منها كلَّ أسْودَ بَهيمٍ".[2]

لقد قلق العلماء من انتهاء نوع من نسل رَخم المسمى بـــ(Geronticus eremita) في تركيا، لأن لكل موجود موضعه المعين في توازن البيئة، فانتهاء نسله يعني انفتاح ثغرة في التوازن. فمَن علّم كل موجود أن يجد موضعه في هذا التوازن للبيئة؟

نحن نقول لهذه المسألة: الهداية الجبرية (الاضطرارية) أو الهداية الجارية ضمن متطلبات الشريعة الفطرية. فنحن ننظر إلى جميع أنماط هذا السَّوق والانسياق ونقيسها من هذه الزاوية.

٢. الهداية التي تأخذ إرادة الإنسان بنظر الاعتبار

إن الله سبحانه يهدي الناس بإرساله وسائل شتى للهداية. فكما أن الأنبياء أسباب ووسائل لهداية الناس، فالكتب المنـــزلة أيضاً أسباب ووسائل

(١) المستدرك للنيسابوري، ٣٢٥/١.

(٢) الدارمي، الصيد ٣؛ أبو داود، الأضاحي ٢١؛ الترمذي، الصيد ١٠.

للهداية. والذين يسعون في سبيل التبليغ والإرشاد هم وسائل أيضاً بهذا المعنى للهداية، علماً أنه سبحانه رغم إرساله وسائل شتى للهداية لا يُخضع الناسَ كرهاً إلى قبول هذه الوسائل. أي لا يضطرهم إلى الإيمان بها اضطراراً. وحيث إن الأمر هكذا فقد يكون أحد وهو في بيت النبوة إلاّ أنه لا يهتدي، أو يكون معارضاً له، وربما في قصر فرعون يتربى مؤمن آل فرعون، وآسيا. وذلك لأن في هذا النوع من الهداية إرادة الإنسان وهي موضوع البحث. فالله سبحانه يخلق جميع الوسائل المؤدية إلى الهداية. ولكن خلقه للهداية مرتبط بإرادة الإنسان نفسه، وعلى الرغم من كونها مجهولة الماهية ونسبية إلاّ أنها شرط عادي في قيام الهداية عليها.

وفي القرآن الكريم هناك الكثير من هذا النوع من الهداية. سنذكر واحداً أو اثنين منها:

١. ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(فصلت:١٧).

بمعنى أن وسيلة الهداية قد بلغت قوم ثمود، بسيدنا صالح عليه السلام. ولكنهم استحبوا بإرادتهم السيئة الضلالةَ وتمردوا على الهداية غروراً وعتوّاً منهم، حتى أرداهم إلى النار والعذاب الأليم.

٢. لقد أرسل الله سبحانه رسلاً كثيرين للناس كيلا يُعذَر الذين ضلوا بإرادتهم: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(النساء:١٦٥).

فالذين ضلوا السبيل لا يمكنهم أن يظهروا حجة ومعذرة لضلالتهم، لأن الرسل الذين أُرسلوا تترى قد بَلّغوا الحقائق بوضوح تام وعلى نصاعتها، ووضحوا مغبة السيئات، وما توصله الحسنات إليه من ذرى سامقة من الكمالات: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾(فاطر: ٢٤).

نعم ما من أمة إلاّ وأرسل إليها نبيّ بشيراً ونذيراً يبلّغهم الحقائق، والله سبحانه يخلق الهداية لمن يستمعون إليهم بإرادهم. أما الذين استحبّوا الضلالة فيظلون في الضلالة التي أرادها الله لهم.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(الإسراء:١٥).

نعم لقد أرسل الله سبحانه أنبياء ورسلاً كي يسدّ طريق الحجة على الناس ولا يبقى لهم محل للاعتراض، وهؤلاء أصبحوا هداة أضاءوا الطريق لأممهم. وكانت حصتنا شمس النبوة وسيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ، فلا حجة لنا عند الله ولا عذر لنا قط. لأننا كما نسمع صوت الرسول ﷺ، ونستشعر أنفاسه المباركة. كذلك الآيات الجليلة في القرآن الكريم تنير أرواحنا، وتلاطف وجداننا كل حين.

فضلاً عن هذا "إنّ الله يَبعث لهذه الأمّة على رأْس كلّ مائةِ سنةٍ مَنْ يجَدِّدُ لها دينَها" فضلاً منه وكرماً،[1] يطهّر أنفسنا من الأدران ويزكّيها ويجدّد إنسان كل عصر حياته الدينية بوساطتهم ويبعث فيها الحياة. وكل هذا وإرادة الإنسان موضوعة في الحسبان، أي أنه ﷻ ربط الهداية بطلب العبد رغم أنه خالق الهداية ووسائلها. فالهداية الاضطرارية (الجبرية) غير واردة هنا إطلاقاً.

وأحياناً يخلق سبحانه الهداية والضلالة مباشرة آخذاً أهْلِيّتهم بنظر الاعتبار.

يرسل الله سبحانه نبيه الكريم ﷺ ويبلّغ الرسول الدين سيدَنا أبا بكر ﵁. فيؤمن دون تلكؤ أو كبوة ويتنور قلبه بنور الإيمان فوراً، وإذا به يرتفع إلى قمة "الصدّيقيّة".

ويرسل الله سبحانه نبيه الكريم ﷺ أيضاً، ولكن يقابله هذه المرة أبو جهل، فيخلق الله سبحانه بحقه الضلالة لعلمه الأزلي بأنه معدوم الأهلية

---

(١) أبو داود، الملاحم ١.

للهداية، وهو بدوره يصدّق هذا الحكم بحقه بأفعاله فيزيد من كفره وكفرانه يوماً بعد يوم. فيتردى أكثر وأكثر حتى يجد مصرعه في غزوة بدر.[1]

٣- يجمع القرآن الكريم في آية واحدة نوعي الهداية معاً ملفتاً إليها النظر ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (يونس:٢٥).

إن الله سبحانه يدعو الناس بوسائل شتى إلى الهداية والصراط المستقيم، إلاّ أنه في الهداية يربطها بمشيئته. فيهدي من يشاء ويضل من يشاء.

إن جهة صغيرة من المسألة متعلقة بالإنسان. فإن استجاب إلى دعوة الله سبحانه وسعى للاستفادة من وسائل الهداية، يتجلّى الله سبحانه عليه بمشيئته ويبلغه الهداية.

إن القرآن الكريم منبع الهداية، ولا ينتفع به إلاّ من شاء الله أن ينتفع، فيكون منبع هداية لهم إذ هو ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾(البقرة:٢). وحيث إن الكلمة "معنى مصدري" نفهم منها أن العبد يجب أن يسعى ليكون أولاً متقياً، ويكون أهلاً للاستفادة من القرآن، وهذه جهة تخص العبد. أما الجهة التي تعود إلى المشيئة الإلهية فتوضحها الآيات التي ترد بعدها بآيات: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِم﴾(البقرة: ٥).

فأولئك كانوا يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ويؤدون الفرائض، من صوم وزكاة، ويؤمنون بالكتب المنـــزلة من قبل، ويؤمنون بالآخرة... فهذه العقيدة رفعتهم إلى مستوى "المتّقين"، والله سبحانه قد أراد لهم الهداية فخلق الهداية.

٤- يقول الله سبحانه مخاطباً نبيَّه ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ٢٨٧/٣.

مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾(الشورى: ٥٢، ٥٣).

تظهر مرتبتان للهداية في هذه الآية الكريمة:

الأولى ما هي إلاّ كونها وسيلة وواسطة ليس إلاّ. والقرآن الكريم يصف أحياناً هذه الواسطة والوسيلة أيضاً للهداية. فالهداية بهذه المرتبة لا تتجاوز حدّ الوسيلة.

أما المرتبة الثانية للهداية فهي خلق الله سبحانه الهداية في قلوب الناس. فكما يخلقها بوساطة الوسائل يخلقها سبحانه مباشرة أيضاً. وما هذه الهداية إلاّ تفضّل ولطْف منه سبحانه، وقد اختار العلماء السابقون لهذا عنوان "اللطف الجبْري". نسأله تعالى أن يرزقنا الهداية باللطف الجبري.

إن الهداية والضلالة من خلق الله ﷻ مباشرة. والحديث الشريف الآتي ينور هذه الحقيقة: "عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بُعثتُ داعيًا ومبلغًا وليس إلي من الهدى شيء، وجُعل إبليس مزيِّنا وليس إليه من الضلالة شيءٌ".[1]

إن الإنسان إنما يسأل بإرادته، ثم يخلق الله سبحانه الشيء الذي سأله. فرغْم أن قدرة الإنسان للحصول على ما يثاب عليه محدودة جداً، فإن له قدرة صورية ظاهرية إلى جهة السيئات والآثام. لأن الشرور والآثام من نوع التخريب، إذ كما يتمكن الإنسان من أن يحرق بيتاً بعود ثقاب، يستطيع أن يقترف آثاماً وذنوباً عظيمة جداً بإرادته الجزئية. علماً أن جميع الأثوبة والحسنات التي يناله آتية إليه من الله سبحانه. والواجب على العبد الثبات على باب الثواب والخير هذا. فكلما كان قصده وعزمه إلى الخير فإن الله سبحانه يكتب له الثواب والحسنات وييسر له طرق الخير جميعاً. فالهداية إذا نُظر إليها من هذه الزاوية، فهي ضرورية لكل شخص في كل زمان وفي كل مكان.

---

(١) ضعفاء العقيلي، ٨/٢؛ ميزان الاعتدال للذهبي، ٤١٦/٢؛ كنز العمال للمتقي، ٥٤٦/١.

الفصل الرابع

أسئلة وأجوبة حول القدر

الميثاق بين الله والإنسان[1]

السؤال: ما المقصود من :﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾(الأعراف:١٧٢)؟

الجواب: هذه الكلمات هي جزء من العهد والميثاق الذي أخذه الخالق من المخلوقات ولاسيما الإنسان، حيث جاء الجواب ﴿بَلَى﴾ مقابل السؤال ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾

لهذه المسألة جهتان:

١. لمن وُجّه هذا السؤال، وكيف سُئل؟

٢. متى سُئل؟

يمكن عرض الملاحظات الآتية حول الشق الأول:

أ- هو سؤال وجواب أو عقْد بـــ"ماهية تكوينية"، أُخذ من الإنسان و لم يك شيئاً مذكوراً، وأجابه بـــ﴿بَلَى﴾ تجاه الأمر بالخروج إلى ساحة "الوجود".

ب- لّما كان الإنسان في عالم الذرات، بل في عالم جزئيات الذرات، ساق رب العالمين -الذي يسوق كل شيء نحو الكمال- هذه الذرات مشوقاً إياها لتصبح إنساناً، وهو أخذ الميثاق والعهد، أي تحميل ذرة ما يفوق طاقتها بكثير، أي قول "بلى" تجاه الإيجاد الذي يترتب عليه التكليف من رب العالمين.

إن هذين الشكلين من "السؤال والجواب" أو "التكليف والقبول" كأنه لم يجر على شكل كلام ومحاورة، وعليه نظر قسْم من المفسرين إلى هذه المحاورة

على أنها من قبيل "الاستعارة التمثيلية". أي كأنه قيل كذا وأجيب عنه بكذا، فأخذت المحاورة قيمتها الحقوقية، وإلاّ فهو ليس عقداً موثقاً بالكتابة أو بالبيان الواضح.

وفي الحقيقة أن الانتهاء إلى هذا الحكم مع عدم النظر إلى فهرس "الخطاب والجواب" لرب العالمين الذي يملك ألف ألف نوع من الخطاب وألف ألف نوع من الجواب، لا يسلم من الخطأ قطعاً. وسنتناول هذا في موضعه.

ج- إن هذا النوع من طلب الإقرار وأخذ الميثاق بالشهادة، هو معرفة الإنسان بنفسه، وإدراكه أن فيه (الشاهد والمشهود عليه) هو نفسه لا غيره. فهو معرفة للنفس وهو تمثيل لحقيقة "من عرف نفسه فقد عرف ربه"[(١)] بوضع مرآة الماهية أمام الأنظار، وبهذا يكون شاهداً على ما ينعكس على شعوره مِن شَهْد الحقائق المتنوعة، ومن ثَمَّ إعلان هذه الشهادة. علماً أن هذا الإيجاب والقبول والتذكير والانتباه ليس سهل الاستيعاب، ربما هو من قبيل أمور تحتاج إلى كثير من الشرح لإدراكها، ومن هنا تتبين أهمية الإرشاد.

إن ما أُعطي للإنسان من أمانة "النفس" أو "أنا" فإنما أُعطيت له لمعرفة الخالق جل جلاله والاعتراف به،. وفي الحقيقة أن غاية وجوده هي هذه المعرفة والاعتراف؛ لذا فإن الإنسان يدل بوجوده هو على وجود الله ﷻ، وبصفاته الجزئية على ثروته ﷻ وغناه المطلق، وبعجزه وفقره على قدرته ﷻ وإحساناته. فهذه الموهبة والإحسان الإلهي، إنما يتفضل بهما سبحانه مقدماً على الإنسان، وما الإدراك والعرفان المترتبان على هذا الإحسان الأول إلاّ إعلان واعتراف من الإنسان على استشعاره بوجوده ﷻ عند النظر إلى كل موجود، واستبصار نوره تعالى في كل ضياء، وهذا يعني ميثاق ﴿أَلَسْتُ﴾ و ﴿بَلَى﴾.

---

(١) كشف الخفاء للعجلوني، ٢/٣٤٣.

فهذا الميثاق هو إيجاب وقبول ونتيجة لمعرفة معاني الكتاب العظيم الذي سطرته القدرة والإرادة، وإدراك أسرار سطور الحوادث.

د- يجب ألاّ يُفهم ولا يُقيّم هذا الميثاق والسؤال والجواب وفق الجسمانيات والماديات. فالله سبحانه وتعالى يأمر كل مخلوق وفق ماهية كلٍّ منه بأوامر، ويستمع إلى الأصوات المنطلقة من المخلوقات أيضاً ويعلمها ويسعف طلباهما حسب مواضعها. وإذا عبّرنا عن هذا بالمصطلحات الكلامية نقول: إن الله سبحانه الذي يفهم كل المخلوقات رغم اختلاف ألسنتهم ولهجاتهم وأنواعهم. ويأمرهم كذلك ويبلغهم حقائقه حسب هذا الاختلاف المتفاوت بين الألسنة واللهجات والأنواع، وينشر الحقائق، ويفتح للأنظار كتابَي الإنسان والكون، ويتسلم من مخلوقاته كلماهم، ويعقد مواثيق وعهوداً معهم، بحيث يبقى الإيضاح الكلامي منحصراً داخل عبارة "الكلام اللفظي". ثم إن أنماط الخطاب الإلهي بدءً من إلهام الحيوانات إلى إلهام الملائكة، هي أنواع من الكلام الإلهي الذي هو تجلٍّ من تجليات "الكلام النفسي".

إن كلام الله سبحانه بهذا النمط من الكلام يجري في دائرة واسعة جدّاً بدءً من الواردات في قلب الإنسان إلى عالم الملائكة. إلاّ أن لكل دائرة من تلك الدوائر كيفيتها الخاصة بها من "الأخذ والعطاء" تختلف عن الأخرى. ولهذا لا يمكن أن يُفهم أو يُدرك ما يرد إلى دائرة معينة وما ينطلق منها في دائرة أخرى قط.

وفي الحقيقة أن الإدعاء بأننا يمكننا أن ندرك كل شيء خطأ جسيم. حيث إننا أدركنا في الوقت الحاضر أن ما نعلمه وندركه من الأمور ليس إلاّ بضعاً يسيرا، ويمكن أن نبصر بالمقدار نفسه أيضاً. وهذا يعني أن العالم الذي ندركه ونشاهده لا يُعدُّ شيئاً بالنسبة لما لا ندرك ولا نبصر.

ولهذا فتكلُّم رب العالمين مع الذرات وأمْرُه الأنظمة، وتركيبه أو تحليله

للأشياء تجري في أبعاد سامية رفيعة جداً، بحيث لا تسعها موازيننا الصغيرة.

إن الله سبحانه يأخذ الميثاق من الذرات، ومن الجزيئات، ومن الخلايا، ومن عالم الذرات، وفي رحم الأم، وفي عهد الطفولة... فنحن لا يمكن أن نقيس بوضوح هذه الأمور بموازيننا قطعاً، وبخاصة إن كان الأمر متعلقاً بروح الإنسان وبدايات تشكله الوجداني.

إن روح الإنسان وُجود مستقل. إذ ثبت هذا في الوقت الحاضر بوضوح تام بما لم يعد هناك ما يستدعي النقاش حوله، حيث إن علم باراسيكولوجي (Parapsikoloji) بفروعه المتنوعة التي تحيط بعالَم العلم قد حوّل هذا الموضوع إلى ما يثير فضول الإنسان ويدفعه إلى معرفة الروح ووجودها ووظائفها ورغباتها وآمالها حتى لم يبق محفل من محافل العلم أو مجلس من مجالس الطبقات الراقية إلاّ ويتكلم عنها. ولما كنا قد تطرقنا إلى مبحث الروح في موضع آخر لذا سوف نتناول فقط ما يمس منه موضوعنا الحالي.

إننا لا يمكن بحال من الأحوال أن ندرك بموازيننا للفهم والإفهام، الإيجاب والقبول المتعلق بالميثاق من حيث إنه قد عقد مع الروح، ذلك لأنها خلقت قبل جسد الإنسان. ومن ناحية أخرى إنها مالكة لماهية فوق الزمان. إذ إنْ كان كلام الروح شبيه بما في الرؤى من كلام وإدراك، وإن كانت الروح تستطيع أن تجري تفاهماً بدون الحاجة إلى موْجات صوتية -كما في التليباثي- وإن اكتسب هذا الموضوع أهمية كبيرة حتى في الاتحاد السوفيتي الذي يمثل العالم المعتقد بالمادية... فإن هذا يعني، بأن للروح لغة خاصة بها. هذا الكلام المتميز للروح ربما يظهر -بخطاب خاص لها- بالتداعي الخاص بها، وبنوع خاص بشخصها من الكلام، ويسجّل في وقت مناسب في مسجلات متميزة ويحفظ في كاسيتات متميزة وتستعمل لغة خاصة بها.

وبناء على هذا فقد دُعيت الأرواح في موضع الميثاق للمحاورة مع الرب الكريم ورأت الأرواح كل شيء واضحاً جليّاً لعدم توسط برزخ الجسمانية،

وقالت ﴿بَلَى﴾ للميثاق. ولكن لأن الكثيرين في أيامنا هذه لم يبحثوا هذا في باب الوجدان من كتاب الروح، لم يصادفوا هذا الميثاق، ولا يمكنهم أن يصادفوه. لأنه لا اطلاع لهم ولا بحث ولا تنقيب في ذلك العالم، فليس لهم أهلية للولوج إلى هذا العالم الروحاني. وفي الحقيقة أن الكتاب الصامت الذي أراد كل من "كانت" (Kant) -بصرف النظر عما كتبه حول تعريف الخالق في جميع كتبه- و"برجسون" (Bergson) اللذيْن أدارا ظهريهما للكون لينصتا إلى ما يقوله، إنما هو هذا الكتاب.. كان لا بد للإنصات إلى الروح وإعارة السمع إلى إلهامات الروح من تأسيس مختبرات لفهم لسان الوجدان ومحاولة إظهار وجه الحقيقة بالفهارس التي تنعكس على الشعور.

هذا الكتاب بذاته شاهد صادق لا يكذب على الحقيقة السامية، فهو العقد والميثاق. إن إفهام المحرومين من هذا اللسان ليس من السهل البتة. وإذا ما تخلت العقول عن أحكامها ومقيّداتها المسبقة، سيشعر الإنسان بما قاله وجدانه ﴿بَلَى﴾ لهذا الميثاق. وفي الحقيقة أن القصد من التفكر الأنفسي والآفاقي وأبحاثهما هو هذا. حيث ينجو الذهن من ضلالاته. ويعطى للفكر حرية ويحاول قراءة هذه الكتابة الدقيقة في الوجدان بعَدَسة التفكر الحر. وهناك الكثيرون قد عوّدوا أنفسهم على النظر إلى أعماق القلب بهذا السبيل. فالواردات التي يحصلون عليها بمشاهداتهم الداخلية وبلطائفهم الداخلية، لا يمكن أن يجدوها في أي كتاب من الكتب. إن رموز الكتب السماوية وإشاراتها يمكن أن تظهر بألوانها الخاصة بها تحت هذه العدسة. فالذين لا يستطيعون أن يروا هذا الأفق وظلّوا محصورين في أنفسهم ولم يتجاوزوها، لا يمكنهم أن يفهموا شيئاً من هذا في أي وقت من الأوقات.

والآن لنبحث الجهة الثانية من المسألة: متى حدث هذا الميثاق؟ ولا بد أن نوضح مقدماً أننا لا نكاد نجد في النصوص أمراً قاطعاً حول ذلك. ولكن يمكننا أن نذكر ما قاله المفسرون فيما يخص هذا الأمر.

حدث هذا الإيجاب والقبول في أثناء سير الحيمن للإخصاب، وفي أثناء اكتساب الجنين شكل الإنسان، أو بلوغ الطفل إلى الرشد. فكل رأي من هذه الآراء لها أساليب للدفاع عنها. ولكن من الصعوبة بمكان أن يرجّح أحد هذه الآراء على غيرها بسبب جاد.

فكما حدث هذا الميثاق في عالم الأرواح يمكن أن يحدث أيضاً في أثناء تعلق الروح بذراتها نفسها في عالم آخر. وكما يحدث في أيّة مرحلة من مراحل تطور الجنين في رحم الأم، كذلك يمكن أن يحدث في أية مرحلة من مراحل النمو حتى البلوغ.

فالله ﷻ الذي يخاطب الأمس واليوم معاً ويعلم ويسمع الأمس كاليوم ربما أخذ الميثاق في كل هذه المراحل. ونحن نسمع صوتاً صادراً كهذا من أعماق وجداننا ونطلع على شهادة قلبنا على الميثاق.

فكما أن المعِدة تعبّر بلسانها الخاص عن جُوعها، والجسم يعبر بكلماته الخاصة عن ألَمه، فالوجدان أيضاً –مستعملاً لسانه الخاص وفق اصطلاحاته الخاصة به– يسرد البحوث عن المكالمات والعقود، ويئن مما يشعر به من آلام واضطراب، ويقلق من أجل ألا يكون وفيا لما قطعه من ميثاق على نفسه، مُظهراً خلجاته وانفعالاته على صورة موجات متعاقبة، مثلما يلفت الطفل الأنظار إليه ببكائه، ويعدّ نفسه سعيداً بذلك، وينتابه الانكسار والخيبة عندما لا يتمكن من التعبير عما يعانيه.

فالوجدان مرآة صافية لأعظم الحقائق، ومكتبة غنية جداً، وسجل خاص، ومحفظة سامية حسب المدرك لحقيقة الوجدان.

الميثاق من جهة الدلالة

السؤال: هل هناك دليل عقلي على ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم قَالُوا بَلَى﴾(الأعراف: ١٧٢)؟

الجواب: هناك مسائل من الصعوبة بمكان إيضاحها عقلاً. حتى إذا شرحتْ فإنها تشرح على أنها من الممكنات، أي ليست محالاً. وفي الحقيقة مادام الله سبحانه يذكر هذا فلا يبقى إذاً عليه اعتراض قط.

يمكننا أن نتناول هذا السؤال من جهتين:

١. هل وقع أمر كهذا؟ إن كان قد وقع فكيف يمكن إثباته؟

٢. هل اطلع الفرد المؤمن على هذا الخبر؟

هل أن السؤال الوارد من الله سبحانه للأرواح -في أي عالم كان- ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وجواب الأرواح ﴿بَلَى﴾ أمر قطعي؟ هذا الموضوع ذكر في القرآن الكريم في آيتين اثنتين.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾(الأعراف: ١٧٢). وهذا العهد قد أُخذ إذن والحادثة وقعت. وقد ذكر المفسرون قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية كلاماً كثيراً.

قال قسم منهم: قد أُخذ الميثاق من الذرات التي ستتركب فيها في المستقبل مركبات ومن أرواحها معاً. وآخرون قالوا: أُخذ حينما وقع الطفل في رحم أمه.

ومفسرون مدققون آخرون يقولون استناداً إلى حديث شريف أنه أُخذ من الإنسان في أثناء نفخ الروح (الحياة) فيه.

وفي الحقيقة أن خطاب الله سبحانه وتكلّمه مع المخلوقات متنوع جدّاً ومختلف جداً. فنحن هنا نتكلم بطراز خاص وبشكل معين، وعلاوة على ذلك فلَنا طرز كلام، لحواسنا الداخلية والخارجية، ظاهراً وباطناً، ولنا تكلّم عقلي وروحي، ولنا نمط من كلام نفسي ولفظي، وكثيراً ما نتكلم بهذه الألسنة ونحاول أن نفهّم الآخرين الذين يفهموها.

فلِلقلْب لسان خاص به. فالقلب يتكلم ولكن لا يُشعَر به. فإذا قيل لنا، ماذا تتكلمون في باطنكم، نقول: كذا وكذا. ونسرد ما تكلمناه في أنفسنا. وهذا تكلّم نفسي. وأحياناً نتكلم في رؤيانا ونفهم من الآخرين أيضاً، ولكن لا يشعر به أي شخص بجنبنا. ثم ننقل الكلام بحذافيره إلى الآخرين. وهذا طراز آخر من الكلام.

وهناك أشخاص يعرض على أنظارهم في عالم اليقظة ما في عالم المثال من لوحات ويتكلمون مع أشخاص في عالم المثال. وربما بعض المادِّيين لا يصدّقون هذا ويقولون إنه "هَلْوسة" (Hallüsinasyon) لندعهم وشأنهم. فقد كان الرسول ﷺ يعرض على نظره النبوي السامي لوحات مثالية من عالم البرزخ وعالم المثال وهو بدوره ينقل ما شاهده وفهمه وأحسّه إلى الآخرين. وهذا نوع آخر من الكلام.

أما الوحي فكلام من نوع آخر كلياً. إذ كان الوحي يأتي الرسول ﷺ، فما كان غيره يشعر به ولا يفهمه، فلو كان هذا شيئاً ماديّاً يُسمع بالأُذُن لَشعر به القريبون منه ﷺ. والحال كان يأتيه الوحي وهو واضع رأسه على ركبة إحدى زوجاته أو واضع ركبته المباركة على ركبة أحد الصحب الكرام، فكان الرسول ﷺ يفهم الوحي من دون أن يشعر به أحد غيره. وكان الرسول ﷺ يبلّغ ذلك الوحي حرْفيّاً إليهم. وهذا صوت بطرْز آخر وكلام بطرز آخر.

يرد الإلهام إلى قلب الولي، فيُهمَس في قلبه شيء، وهذا طرز آخر من

الكلام مثلما هو في لغة مورس "التلغراف" حيث يستطيع الموظف المختص تحليل ما يبثه هذا الجهاز من شفرات وإشارات. وقد تلقى بعض الأمور في قلب الوليّ، وهو بدوره يستخرج منها معاني شتى. فمثلاً: يقول الولي: فلان بن فلان على الباب، ويفتحون الباب فإذا بالشخص المذكور أمامهم. وهذا طرز آخر من الكلام.

وهناك التلباثي (Telephati): فعُلماء اليوم يهيئون بحساباتهم وتجاربهم أنه سيأتي يوم يمكنهم أن يتخاطبوا بالتليباثي. وهذا شكل آخر من الكلام. وتوجه القلب للقلب ووصول كلام الإنسان به بعضهم لبعض من الداخل بيان بطرز آخر.

يفهم من كل ما ذكرناه أن الله ﷻ قد خلق أنماطاً وطرزاً كثيرة لا تعد ولا تحصى من المخاطبات.

والآن لنعد إلى موضوعنا. إن الله سبحانه قال لنا: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ولكننا لا نعلم بأي طراز من الكلام قد قال هذا، فإن كان كدقّات مورس -ولا مشاحة في الأمثال- كما في الكلام مع الولي، فهذا لا يمكن أن نَسمع صوته بآذاننا. إن كان هذا إلهام فليس وحياً، وإن كان وحياً فليس إلهامًا. إن كان كلاماً مع الروح فليس هو كلاماً مع الجسد، وإن كان خطاباً للجسد فليس هو من نوع الخطاب للروح.

وهذه نقطة مهمة جداً. إن ما يشاهده الإنسان ويشعر به في عالم المثال وعالم البرزخ أو في عالم الأرواح، يخطئ الناس إذا ما قاسوا تلك الأمور بموازين هذا العالم. فالرسول ﷺ يقول: "العبد إذا وُضع في قبْره وتُوُلي وذَهب أصحابُه حتىّ إنه ليَسْمع قَرْع نعالهم، أَتاه ملَكان فأَقعداه، فيقولان له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرّجل محمدٍ ﷺ؟..." .[١]

---

(١) البخاري، الجنائز ٨٧.

تُرى إلى أي شيء يوجَّه السؤال؟ فسواء سئل جسده أو روحه، فالنتيجة لا تتغير. فحتّى لو شعر الميت بهذا الكلام، فالحاضرون حوله لا يشعرون به قطعاً. وحتى لو وضعوا آلة مسجّلة في القبر فلا يمكنهم أن يسمعوا شيئاً قط، ذلك لأن المكالَمة تجري في أبعاد أخرى وليست من طراز أبعادكم، كالأبعاد التي توصّل إليها أَلْبَرت أينْشتاين (Einstein) وغيره، البعد الرابع والخامس وأمثالها من الأبعاد. كذلك المسألة تتبدل بتبدل المكان، وتبرز أمامكم بهوية أخرى؛ لذا فـ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ كلام الله للروح بكلام خاص بها. ويلزم ألاّ أنتظر أن أدرك تأثير هذا الكلام أو أحفظه. بل يمكن أن أعيه بشكل إحساس منبعث من الوجدان. فنحن نستشعر بهذا بوجداننا على شكل إلهامات.

قال لي أحد الناس أثناء إيضاحي لهذه المسألة: إنني لم أشعر بهذا. قلت له: وأنا شعرتُ به، فإن لم تشعر به فأنت وشأنك. لأنني أتذكر جيّداً استشعاري به وإذا ما سُئلت "بأي شيء شعرت به" أُجيب: "بالتوْق إلى الأبَد المغروز فيّ". لقد سمعت هذا الصوت برغباتي غير المتناهية رغم أني مُتناهٍ. وفي الحقيقة أنني لا أستطيع إدراك الباري عز وجل لأنني محدود مقيّد، فكيف أُدرك المطلقَ غيرَ المحدود! ولكن أدرك عدم المقيد والمطلق بما فيّ من رغبة وتوْق نحوه. فحشَرة محدودة في هذا العالم المحدود تعيش في عالمها المحدود وحياتها المحدودة، ثم تموت. والأشياء الداخلة في حياتها هي الأخرى محدودة. وأنا مثلها في عالم محدود، ولكن أفكر في الـ"لا محدود" و"غير المتناهي". ففيّ رغبة نحو الأبَد، أحمل في روحي التوْق إلى الجنة ورؤية جمال الله. وحتى لو تملكتُ الدنيا كلَّها لا يزول همّي هذا. ولهذا قلت "أحسستُ به"، لأن فيّ هذه الحال.

فأياً كان الوجدان، فهو يترنم بذكر الله بكلياته وأقسامه ولا يكذب قط. فعندما تعطونه ما يرغب فيه يسكن ويطمئن. ولهذا لا يجد القلب الذي هو لطيفةٌ ربانيةٌ سكينتَه إلاّ إذا وجد الوجدان سكينته وطمأنينته. وإشارة لهذا

تقول الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد: ٢٨).

وهناك أمر آخر فــ"برجسون" (Bergson) وأمثاله من الفلاسفة تركوا جميع الأدلة العقلية والنقلية في إثبات وجود الله ﷻ واستعملوا وجدانهم وحده دليلاً على ذلك. حتى يقول "كانت" (Kant) في إحدى المرات: "إنني تركت جميع معلوماتي وراء ظهري كي أعرف الله معرفة تليق بعظمته". بينما "برجسون" نجده يريد أن يسلك هذا الطريق. ودليله الوحيد هو الوجدان. فالوجدان يضطرب ويقلق كثيراً من إنكار الله سبحانه، فلا يسكن ولا يطمئن إلاّ بالإيمان بالله. والإنسان عندما يستمع إلى صوت الوجدان الصادر من الأعماق، يشعر دوماً بوجود معبود أزليّ وأبدي. فهذه الحال وهذا الأداء هو الجواب بــ﴿بَلَى﴾ الذي عبّر عن نفسه بكلمات صامته في وجدان الإنسان، جواباً على سؤاله تعالى ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾. فأيما إنسان إذا ما راقب ولاحظ بدقة، سيجد ذلك الصدى يصعد من أعماق روحه. وإلاّ لو يبحث عنه في العقل أو الجسد، يقع في التناقض. نعم إنه موجود في وجدان كل أحد، إلاّ أن إثباته يخص ميدانه هو. فأهل التحقيق وأهل الشهود والأصفياء والأولياء والأنبياء جميعهم شاهدوه بوضوح كالشمس في رابعة النهار وأظهروه للآخرين.

أما إثباته بالعقل فإننا لا نستطيع أن نبيّن هذا لكم كما نبين شجرة من أشجار الدلب أو شجرة الصنوبر. فالذي يستمع إلى وجدانه ويشاهد ما يجري فيه سيشاهد هذا وسيدركه وسيسمعه.

جزئيات الإرادة وكلياتها

السؤال: لقد بيّن القرآن الكريم أن الإرادة الكلية خاصة بالله وحده. ومن المعلوم أن للإنسان إرادة جزئية، فالذي يرتكب الآثام هل يرتكبها بناء على إرادته أم أن إرادة الله الكلية هي التي تدفعه لارتكاب الإثم؟

الجواب: نلخص المسألة بالآتي: إن الإنسان له إرادة، ونحن نطلق عليها "الإرادة الجزئية" أو "المشيئة البشرية"، أو "قدرة الكسب البشري". ونطلق على خلق الله سبحانه "الإرادة الكلية"، "قوة الخلق أو القدرة"، "الإرادة"، "التكوين" (وهذه صفات الله ﷻ). فإذا أخذت المسألة من جهتها التي تعود إلى الله تُفهم كأن الله يدفع الأشياء إلى الإيجاد اضطراراً فتظهر في الوجود. وهكذا تدخل في مسألة "الجبر". وإذا ما أخذت المسألة من جهتها التي تعود إلى الإنسان تُفهم أن الإنسان هو الذي يفعل فعله، وعند ذلك يدخل فكر "القدرية-المعتزلة" المؤسس على قولهم "العبد خالق لأفعاله".

إن الله سبحانه خالق كل شيء في الوجود، فالإرادة الكلية الواردة في السؤال هي هذه. حتى أن الآية الكريمة: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٦) تبيّن أن الله خالقكم وخالق أعمالكم الصادرة منكم. فمثلاً: إذا صنعتم سيارة، أو أنشأتم بناءً فالله هو خالق هذه الأشياء، وأنتم وأفعالكم تعودون إلى الله. ولكن هناك أمر يخصّكم، وهو الكسب والمباشرة البشرية، وهذا هو شرط عادي وشيء كالميل، كلمس مفتاح شبكة الكهرباء التي تنير العوالم، فكما لا يمكن القول في هذا الموقف: لا دخْل لكم في الأمر قطعاً، كذلك لا يمكن أن يعود كل شيء إليكم.

فالعمل بتمامه يعود إلى الله، ولكنه ﷻ عندما يخلق هذه الأشياء قد قَبِل

مُداخلتكم الجزئية شرطاً عادياً في خلقها، وأنشأ كل ما يعمله على ذلك الجزء الاختياري.

فمثلاً: إن نظام الكهرباء في هذا الجامع قد خلقه الله سبحانه، وإضاءته مجدداً يخص الله أيضاً؛ فإيجاد ضوء من سيل الألكترونات وإضاءة الجامع كلٌّ منه فِعْل بذاته، وهذه الأفعال تعود إلى الله الذي هو نور النور منوّر النور مصوّر النور. ولكن لكم حصة ومداخلة في إضاءة هذا الجامع ومباشرة بالفعل، وهو ما وضعه الله سبحانه من نظام في الكهرباء، وهو مجرد لمسكم المفتاح يتنور الجامع. ووظيفة إضاءة الجامع بنظام الكهرباءِ تخص الله سبحانه وهي وظيفة تفوق كثيراً طاقاتكم وإرادتكم.

ولنوضح الأمر أكثر... مثلاً: مكنة مهيأة للعمل وللسير، أُعطيت لكم وظيفة لمس مفتاح العمل. فتحريك تلك الماكنة يخص الذي أنشأها، لذا نقول لهذه المباشرة الجزئية التي تخص الإنسان بـــ"الكسب" أو "الإرادة الجزئية"، أما ما يخص الله سبحانه بـــ"الخلق" و "الإيجاد". وبهذا تنقسم الإرادة إلى قسمين:

ا- الإرادة الكلية

ب- الإرادة الجزئية

فالإرادة أو المشيئة تخص الله وحده ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللّٰهُ﴾ (الإنسان: ٣٠). ولكن لئلا يفهم الأمر خطأ؛ إننا عندما نقول هذا الكلام نقول إن للعبد أيضاً وظيفة لمس المفتاح، فله إرادة أيضاً، وذلك لئلا نقع في التضاد الذي في مذهب الجبرية. وعندما نقول إن الذي أوجد الشيء هو الله نبين به أننا لا ننظر إلى الأمور بنظر المعتزلة، وبهذا لا ندّعي الشرك بالله لا في ألوهيته ولا في ربوبيته تعالى. فكما أن الله سبحانه واحد أحد في ذاته فهو واحد أحد في إجراءاته، لا يُحمل عملُه على غيره، فهو خالق كل شيء بذاته. ولكن لأجل التكليف وأمثاله من الأسرار والحكم قد قَبل مباشرة البشر شرطاً عادياً.

ولأجل الإيضاح نورد مثالاً يذكره رائد عظيم:

"إذا أخذت طفلاً عاجزاً ضعيفاً على عاتقك، وخيّرته قائلاً: إلى أين تريد الذهاب، فسآخذك إليه. وطلب الطفل الصعود على جبلٍ عالٍ، وأنت أخذته إلى هناك، ولكن الطفل تمرض أو سقط. فلا شك أنك ستقول له: أنت الذي طلبت! وتعاقبه، وتزيده لطمة تأديب. وهكذا -ولله المثل الأعلى- فهو سبحانه أحكم الحاكمين جعل إرادة عبده الذي هو في منتهى الضعف شرطاً عادياً لإرادته الكلية".[1]

ففي هذا المثال هل يمكن إنكار إرادة الطفل؟ لا شك أن الجواب: كلا، لأنه هو الذي طلب وأراد. أما الذي أوصله إلى ذلك المكان العالي فهو أنت، والمرض كذلك لم يفعله الطفل، وربما لم يصدر منه غير الطلب، لذا فلا بد من التمييز بين الذي مرّض وأوصل الطفل إلى هناك والذي طلب هذا الفعل. فنحن ننظر إلى القدر وإرادة الإنسان من هذا المعنى والفهم. ولا يعلم حقيقة الشيء إلاّ الله المقدّر.

(١) الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي، الكلمة السادسة والعشرون / المبحث الثاني / المثال السابع.

المشيئة الإلهية وحرية الإنسان

السؤال: في القرآن الكريم ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾(الكهف:١٧) وهناك أيضاً، أن الله قد منح الإنسان العقل والتفكر وله إرادته وهداه الله السبيلين أيما شاء سلك. كيف يمكننا أن نؤلّف بين الأمرين؟

الجواب: في هذا السؤال شقان:

هل الشيء يحدث بالإرادة الكلية بما يشاؤه الله، أم أن الإنسان يستعمل إرادته؟ فالهداية الواردة في السؤال تعني: الطريق المستقيم، الرشد، الطريق الذي سلكه الأنبياء. أما الضلالة: طريق الضالّين، الضياع عن الطريق المستقيم، الانحراف عن الجادة. فإذا ما دقق النظر تبين أن كِلا الأمرين فعلٌ واحد، وأن جهته التي تعود إلى الإنسان عبارة عن أُفعولة، لوظيفة. وعلى هذا يقتضي تفويض كليهما إلى الله سبحانه وتعالى، إذ كل فعل يرجع إلى الله، فلا فعل لا يرجع إليه، فالله بمقتضى اسمه "المضلّ" يخلق الضلالة وبمقتضى اسمه "الهادي" يخلق الهداية، فالذي يهدي ويضل هو الله وحده جل جلاله.

ولكن هذا لا يعني، أن العبد يُدفع إلى الضلالة والهداية دفعاً وكرها من قِبل الله من دون أن يكون للعبد دخل ومباشرة، فيكون ضالاً أو مهتدياً راشداً. ويمكن أن نفهم هذه المسألة باختصار كالآتي:

إن الاهتداء أو السقوط في الضلالة، ليكن فعلاً بثقل عشرة أطنان مثلاً. فإن إعطاء واحد من مائة من هذا الثقل إلى الإنسان خطأ، لأن المالك الحقيقي هو الله سبحانه فلا بد أن يُعطى الفعل إلى مالكه.

ولنوضح الأمر أكثر: إن الله سبحانه يهدي، وله وسائل للهداية. فالمجيء إلى الجامع والإنصات إلى الوعظ والتنور فكراً طرقٌ للهداية؛ والاستماع إلى القرآن الكريم والتدبر في معانيه والنفوذ في أعماقها من طرق الهداية أيضاً؛ وحضور مجلس الرسول ﷺ والتتلمذ على أحاديثه الشريفة النابعة من القلب والاستماع إليها بأُذن الروح والإنصات إليه بقلب شهيد وجعل وجدانه مرآة عاكسة لما يرد منه من التجليات من طرق الهداية... فالإنسان في هذه الطرق يباشر الهداية. نعم، إن المجيء إلى الجامع مباشرةٌ جزئية، ولكن الله ﷻ يجعل هذا المجيء وسيلة للهداية، فالهادي هو الله، ولكن الطارق لباب الله بلوغاً إلى هذه الهداية هو العبد بعنوان "الكسب".

والإنسان بتردده إلى الحانات وأماكن السفاهة والأصنام يكون قد طرق باب اسم "المضلّ" وكأنه يقول "أضلّني". والله سبحانه يضلّه إذا شاء، وإذا شاء يوجد عوائق لئلا يضله. فإذا ما أَمعنّا النظر إلى الإرادة الجزئية للإنسان نجدها صغيرة وضئيلة إلى حد لا يمكن أن توجِد الهداية ولا الضلالة.

أتريدون مثالاً؟ انظروا! عندما تستمعون إلى القرآن الكريم والوعظ والإرشاد أو تقرأون كتاباً علمياً يغرق باطنكم في النور. بينما شخص آخر بمجرد سماعه الأذان المحمديّ أو الوعظ والنصيحة بل أرقّ المناجاة القلبية، إذا به ينـــزعج ويتضايق حتى يشكو من صوت الأذان.

بمعنى أن الذي يهدي ويضل هو الله، ولكن إذا ما وطئتْ قدم امرئ طريق الضلالة فإن الله سبحانه يخلق ما يخصه وهو ٩٩٩.٩ من العمل. كما هو الحال في لمس مفتاح الكهرباء، ثم يجعله يميل إلى الضلالة. ولرغبته هذه إما يعاقبه أو يعفو عنه.

المترفون والفقراء . . . لماذا؟

السؤال: نشاهد أن الله قد أعطى الكثيرين الأموال الطائلة والسيارات الفارهة والقصور الفخمة والشرف الرفيع والصيت الذائع... بينما الآخرون يتضورون جوعًا وتصيبهم آلام وبلايا ومصائب وفقر وعلل. فيا ترى هل هؤلاء فاسدون والآخرون يحبهم الله حتى أغدق عليهم ما أغدق، بينما هؤلاء ينسحقون تحت وطأة أعباء الحياة؟

الجواب: هذا النمط من السؤال لا يُسأل إلاّ للتعلم فحسب. وإلاّ وإلا فإن السائل يكون آثماً. والحقيقة أن الذي يعاني مثل هذه المعاناة يلزمه هذا السؤال.

نعم، إن الله يعطي لمن يشاء العمارات والسيارات والخيول المسومة والأنعام والحرث... ولمن يشاء الفقر والضرورة والحاجة. وينبغي في كل هذا عدم إنكار دور الأسباب الآتية من الأسرة والبيئة المحيطة بالفرد. فمثلاً كما لا يمكن إنكار دراية شخص في كسبه المال، لا يمكن إنكار كون علمه بطرق الكسب وفق ظروفه المحيطة سبباً لكسبه. علاوة على ذلك فإن الله في الوقت الذي أظهر أهلية بعضهم، لم يعطهم المال والأولاد. ومع هذا فقد ورد في حديث ذي مغزى عميق يخص موضوعنا: "عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: إن الله قسَم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإنّ الله عز وجل يعطي الدنيا من يحبُّ ومَن لا يحبّ ولا يُعطي الدِّين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدِّين فقد أحبَّه".[1]

---

(١) المسند لأحمد بن حنبل، ٣٨٧/١.

ومن ناحية أخرى لا ينبغي أن تعدّ الأموال خيراً. نعم، إن الله إذا شاء يؤتي أحياناً البعض الأموال والأولاد وأحياناً لا يؤتيهم. فالخير وارد في كلا الحالتين. لأنك إن كنت صالحاً واستعملت ما آتاك الله من مال في صالح الأعمال فإنه يكون لك خيراً، وإن كنت طالحاً وضالاً عن الصراط السوي فإعطاء الله لك ليس خيراً.

نعم، إن لم تكن لك استقامة على الطريق فالفقر يكون لك باباً للكفر. لأنه يسوقك إلى عصيان الله، ويوماً بعد يوم تزيد عصياناً لله. كذلك إن لم تكن على الصراط السوي ولم تكن لك حياة قلبية وروحية يكون غناك وَبالاً عليك وبلاء. قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(الأنفال: ٢٨). ولقد خسر الكثيرون في هذا الامتحان. إذ هناك الكثيرون جداً ممن غرقوا في الثروات الطائلة وليس في قلوبهم بصيص من نور بسبب كفرانهم النعم. لذا فإن إتيان الله الأموال لمثل هؤلاء إنما هو استدراج ووسيلة لإضلالهم. وهم يستحقون هذه النتيجة لأنهم أماتوا حياتهم القلبية والروحية وأفسدوا قابلياتهم التي وهبهم الله.

ولعل الحديث الشريف الآتي يوضح الأمر أكثر: "كم مِن أشْعثَ أغْبَر ذي طِمْرَيْن (صاحب ثوبين خلقين) لا يُؤْبَه له لو أقسم على الله لأَبَرّه، منهم البراءُ بن مالكٍ".[1] علماً أن البراء بن مالك أخا أَنس بن مالك ما كان له طعام يأكله ولا مَسكن يأوي إليه. فكان يعيش على ما يسد الرمق. ولربما هناك الكثيرون ممن يشبه البراء أشعث أغبر لكن الله نظر إلى قلوبهم العظيمة وأرواحهم الواسعة ومَنَحهم هذه المنـــزلة، فكما ورد على لسان الرسول ﷺ لو أقسم على الله لأبرّه.

ولهذا فليس الغنى وحده ولا الفقر وحده مصيبة، وإنما كلٌّ حسب موقعه. الفقر في موضعٍ والغنى في موضع يعدّان نعمة إلهية. والرسول ﷺ قد

(١) الترمذي، المناقب، ٥٥.

اختار الفقر بإرادته وقال "أما تَرْضَى أنْ تكون لهم الدنيا ولنا الأخرةُ".[1] ونرى أن سيدنا عمر رضي الله عنه في الوقت الذي وردت إليه خزائن الدنيا يكتفي بالكفاف من العيش ويرفض الزيادة عليه.

ولكن هناك فقر يكاد يكون كفراً -والعياذ بالله- فمثلاً: إن لم يكن السؤال صادراً من شخص مؤمن، بل من شخص كافر بالنعم، فهذا الشخص الذي يشكو من نعم الله يكون كافراً.

بمعنى أن الفقر نعمة في موضعه، والغنى نعمة في موضعه. والأصل في المسألة وجود المصدّق في القلب.

يا ربي! جميل ما يأتي منك،

يعجبني كل ما يأتي منك

سواء أكانت خلعة أو كفناً،

وَرْدة مفتحة كانت أو شوكة،

فلطفك جميل وقهرك جميل..

وكما يردّدون في شرقي الأناضول: كل ما يأتي منك جميل.

نعم، إن الإنسان لو كان في بحر من الغنى، وكان مع الله سبحانه فسيكون كالشيخ عبد القادر الكيلاني الذي قدمه على أكتاف الأولياء وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على كتفه. ولكن إن كان مقطوع الصلة مع الله فقد خسر ذلك الفقيرُ الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. وكذا الغني الذي لا صلة له مع الله سيكون مصيره الخسران وإن كان يرفل بالسعادة ظاهراً.

---

(١) البخاري، تفسير سورة (٦٦)، ٢؛ مسلم، الطلاق، ٣١.

العاهات الجسدية

السؤال: لِمَ لم يخلق الله تعالى عباده متساوين؟ فقد خلق بعضهم أعمى وآخر أعرج؟

الجواب: نجيب عن هذا السؤال قائلين:

١. إن الله مالك الملك يتصرف في ملكه كيف يشاء، لا يتدخل أحد في إجراءاته قط. فالذي خلق ذرات جسمك ونظم تركيب أجزاء جسمك هو الله، والذي وهب لك الإنسانية هو الله أيضاً. إنك لم تعطِ شيئاً مقابل هذا كي تدّعي أن لك حقاً عليه. فلو كنت قد أعطيت شيئاً مقدماً فلربما كان لك الحق في السؤال: "لا تعطني عيناً واحدة بل عينين، ولا يداً واحدة بل يدين" وأمثالها من الطلب والإعتراض. فأنت لم تعطه شيئاً حتى تُسند إليه الظلم (حاشاه). إن الظلم نابع من عدم الإيفاء بحق، فأين حقك عليه الذي لم تستوفه منه، حتى تدّعى وقوع الظلم عليك.

إن الله ﷻ أوجدك من العدم، ثم جعلك إنساناً، فلو تدبرت قليلاً فإن دونك كثير جداً جداً من المخلوقات. عند ذلك تجد نفسك قد نلت الكثير من النعم.

٢. إن الله سبحانه قد يأخذ رِجْل إنسان ولكنه يعوّضه عنها في الآخرة بأشياء كثيرة، إذ يُشعر ذلك الإنسان بأخذه ذلك الجزء منه بعجزه وضعفه وفقره ويحوّل قلبه نحوه. ولئن جَعل قلب ذلك الإنسان يشرع بالانشراح والانكشاف فلقد أَعطى له الكثير وأخذ منه القليل. فهذا يعني في الحقيقة لطف الله سبحانه بذلك الإنسان وإن كان لا يبدو كذلك. كما يرزق أحدهم الشهادة ويدخله الجنة، ويحظى بالحضور الإلهي، وهي مرتبة يغبطه

عليها الصدّيقون والصالحون، حتى يقول من يراه "يا ليتنا نفوز بالشهادة مثله". فإنسان كهذا الذي نال الشهادة لو قُطّع إرباً إرباً لما عدّ أنه فقد الكثير، إذ الذي ناله أكبر بكثير مما أعطاه.

ونادر جداً أن ينحرف بعض الذين فقدوا بعض أجزائهم إلى الشعور بالنقص والاعتراض والسخط والتشاؤم، فالكثيرون منهم أصبحت هذه النقائص وسيلة لدفعهم إلى التوجه إلى الله.. فالأصل في المسألة تنبيه روح الشوق إلى الآخرة في الناس الذين هم مخلوقون أصلاً لها.

فإن هذه العوارض تدفع صاحبها إلى الله. والآخرون يتعظون بها وتورثهم الثقة والاطمئنان بالله وعندها يحصل المقصود المتسم بالحكمة.

إن الإنسان والحيوان والنبات وجميع الموجودات لا تظهر إلى الوجود إلاّ بقدرة نافذة فيها. فتوفى مهمتها بعرْض نفسها كالمرايا لتلك القدرة، ثم تنسحب من مسرح الوجود ليحلّ غيرها محلها.

وجميع المواليد وجميع الوفيات في هذا العالم إنما هي مواضع لإجراء الامتحان. فكما أن وجود أي شيء كان دليل على موجدٍ وراء الستار، كذلك وفاة كل شيء وانتهاء وظيفته دليل على أبدية ذلك الموجد الذي وراء الستار الذي لا أول له ولا آخِر. فكما أننا والموجودات كلها ظهرنا إلى الوجود من العدم ومن "لا شيء". وندل بوجودنا على وجود موجِد، وببصرنا وسمعنا وعلْمنا على واحد بصير سميع عليم؛ كذلك بتركنا –عند الوفاة– كل ما حملناه أمانةً على امتداد الحياة ندل على "الواحد الفرد". فـ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(الملك:٢).

إن أهم شيء بالنسبة للإنسان إدراكه سر المجيء إلى الدنيا واجتيازه امتحان الوجود، والتهيؤ إلى الرحيل.

والآن بعد هذا التمهيد نتناول موضوع: هل آجال الذين يتوفون في آن واحد قد أتاهم معاً؟

نعم، إن أجل جميعهم قد أتاهم معاً. وليس هناك مانع قط في خلاف هذا الأمر. فكما أن الله ﷻ القابض على الوجود كله يوجد كل شيء وكل الناس معاً وفق قدره بدءاً من الذرات إلى المجرات، فإنه قادر على أن يُميتهم كلهم معاً. وإن وجودهم في أماكن متعددة وبالكَيفيات المتنوعة واتصافهم بالأوصاف المختلفة لا يُشكّل مانعاً من ذلك.

لا شك أن إيراد مثال، يعكس تماماً القدرة المطلقة صعب جداً. ولكن يمكن إعطاء أمثلة كثيرة من الأشياء التي يمكن أن تكون مرايا لتلك القدرة فتنور الفكر.

فمثلاً: إن الموجودات المختلفة في الأوصاف والكيفيات المتوجهة للشمس، تمضي حياتها متوجهة إليها دون أن تسبب ما يكدر الحياة، فتأخذ أجمل الحالات تحت ضيائها متحولة من لون إلى آخر، وتنمو وتترعرع بشروقها وغروبها. ثم تنطفئ وترحل. كذلك الحال في كل شيء يتلقح في الربيع وينتشر في الصيف، ويزداد نمواً ثم يصفر في الخريف ويذبل، ولكن لكلٍّ قدرُه. فكلها يظهر وجوده حسب الطريق الذي يخططه له العلم المطلق ووفق خططه وتصاميمه وبتوجيه الإرادة المطلقة والمشيئة المطلقة، لا كيفما اتفق ولا بحسب رغبة الموجود، بل حسب ما تريده تلك المشيئة والإرادة ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(الأنعام: ٥٩).

فلئن كانت حياة الأشجار والأعشاب والبذور والنوى وموتها ونموها وثمراتها تراقب مراقبة جادة إلى هذه الدرجة، فهل يمكن أن يُترك الإنسان سدىً وهو أكمل الموجودات؟ إن مالك الملك الذي لا يشغله سمعٌ عن سمع ولا رؤية عن رؤية لا شك أنه يهتم بالإنسان الذي هو أعز مخلوق وأبدع صنعة لديه سبحانه، وينعم على كل فرد منه ما ينعم على نوع المخلوقات الأخرى وجنسها. ويرعى الإنسان الذي هو فهرس العوالم بشكل خاص.

ويتفضل عليه من أفضاله وإحساناته الخاصة ما يتفضل، وسيشرّفه بحضوره بسَوقه الخاص.

هذه الدعوة والسَّوق الإلهي قد يكون أحياناً على فراش، وأحياناً في ساحة الحرب، وأحياناً بآفة ومصيبة، حتى قد تكون فرادى وأحياناً مجتمعة. فهذه الأمور لا تؤثر في النتيجة من حيث زاوية نظر الخالق إلى الإنسان. إن العليم المطلق والقدير المطلق، والقابض على أنفاس كل كائن حي وزمام كل إنسان ويرسله متى شاء.. هذا القدير العليم، قبضُه للأرواح وفق ما كتب عنده -سواء كان فرداً معيناً أو جماعة- أمر منطقي ومعقول جداً، وإن هذا شبيه بموعد تسريح فوج من الجيش بأمر من القائد العام، ذلك الموعد الذي كان محدداً مسبقاً.

فضلاً عن ذلك فإن هناك ملائكة كثيرين جداً مكلفون بقبض الأرواح، يمكنهم أن يقبضوا الأرواح في آن واحد في الأماكن التي انتشرت فيها الآفات، بتقدير وإشراف مالكهم الكريم سبحانه، بل ربما هناك عدد من الملائكة يمكنهم أن يقابلوا كل شخص متوفى ويستقبلوه وفق ما بين أيديهم من الكتاب.

في مثل هذه الآفات والمصائب -إذا ما لوحظ بدقة- لا يمكن للإنسان ألاّ يشاهد التقدير المسبق ومجيء أجَل المتوفين معاً. وربما نحتاج إلى مجلدات لتسجيل جميع الحوادث الخارقة والعجيبة في هذا الشأن. فضلاً عن أن المسجَّل منها والمكتوب كثير إلى حد يتجاوز المجلدات. فلا يغادر يوم إلاّ ونطّلع في المطبوعات على بضع من هذه الحوادث الخارقة.

مثلاً: أن الزلزال الرهيب الذي يجعل عالي المدن سافلها، في الوقت الذي لا يمكن إنقاذ أُلوف من الناس رغم ما يُبذل من جهود مضنية، إذا بمئات من الأطفال العاجزين حتى عن الحفاظ على أنفسهم، يعثر عليهم تحت الأرض وهم في راحة دون أن يمسهم أي ضرر. أو تدحرج عربة إلى قناة الماء ويتوفى

جميع مَن فيها من العمال، وإذا بمسافات بعيدة عن الحادث يعثر على طفل في القماط فوق الماء لم يصبه أي أذى. وكذا في حادثة سقوط طائرة يحترق كل من فيها بما فيها الملاحون الماهرون جداً، وعلى بُعد مئتي متر من الحادث يُعثر على طفل محبوب لم يصبه أذى... وأمثالها من الحوادث تثبت أن الحياة والموت ليس حبلهما على غاربهما، بل يحدثان بتدبير مَن هو عليم بصير مدبّر.

إن كل مخلوق يأتي إلى الحياة فرداً فرداً أو مجموعة مجموعة، بعد أن ينهوا أعمالهم التي كُلّفوا بها والمسجلة في سجل أعمالهم الأساس وذلك بمجيء آجالهم، وبعد أن أدّوا مهام فطرتهم وفهْم دقائقها وأسرارها وكشفوا عما وراء الطبيعة من خفايا وأصبحوا مرايا لتجليات من أرسلَنا جميعاً وهو الله سبحانه.. أقول بعد أن أكملوا عمرهم يسرّحون فرداً فرداً أو مجموعة مجموعة.

إن هذا العلم بإتيان المخلوقات ثم تسريحهم من أعمالهم، أي إنهاء وظائفهم وإتيان آجالهم في آن واحد، أمر هيّن جداً على الله العليم بكل شيء من بدايته إلى ختامه، فضلاً عن أننا نعلم أن الذي يعلم الجهر وأخفى له عدد غفير من الملائكة حول كل إنسان وعدد كثير من الملائكة لقبض الأرواح.

وربما يرد هنا اعتراض على هذه الصورة:

"إن في مثل هذه المصائب يذهب كثير من الأبرياء بجنب الذين يستحقون البلاء فهل توضحون الأمر لنا؟"

فنبادر إلى القول: إن هذا السؤال نابع من خطأ في العقيدة والتصور الإيماني. إذ لو كانت الحياة مجرد هذه الحياة الدنيوية ولا توجد آخرة وليس للإنسان إلاّ هذه الدنيا، ربما كان لهذا الاعتراض ما يبرره بوجود وجه صواب فيه. بينما هذه الدنيا للإنسان ليست إلاّ مَزرعة، وساحة عمل،

وصالون انتظار. أما الآخرة فهي البيْدر وموضع الحصاد وأخذ الثمرات ومكان لبلوغ السعادات والنجاة من إزعاجات الدنيا. ولهذا فلا غرابة قطعاً في موت الطيب والخبيث والبريء والمجرم معاً. بل إن جريان الأمر هكذا هو الموافق للعقل والمنطق. لأن كل إنسان سينال في البعث وجوداً جديداً حسب نياته وأطواره ويعامل وفقهما. فإما حياة سعيدة خالدة أو شقاء دائم.

حاصل الكلام: إن الموت والأجل عبارة عن انتهاء مدة البقاء والعمل في هذه الدنيا. فمثل هذه المدة ما هي إلاّ ما أعدّه البصير العليم من خطة مرسومة مسبقاً ومسجلة في السجلات الأساسية، وتنفذ في الوقت المحدد بأمره سبحانه أيضاً. ولا فرق منطقياً في هذا إن كان فرداً أو مجموعة.

وأعتقد أن السبب الأول للانحراف -كما هو هنا وفي كثير من المسائل- هو الجهل بالعلم الإلهي المطلق وبقدرته غير المحدودة. وسبب آخر أيضاً هو الخطأ في زاوية النظر إلى الأشياء والحوادث. فإن لم نتمكن من الانسلاخ من مفاهيم الطبيعة والمصادفة، ولم نرقَ وجداناً إلى التجرد، فإن باطننا سيمتلئ بالمفاهيم الزائفة ويغدو ميداناً لصراع الوساوس الشيطانية، في أثناء مواجهتنا للأحداث الجارية. وفضلاً عن ضعف عالمنا الروحي، وعدم تغذيته الغذاء اللازم، يُجرّع كؤوس الشبهات التي لا سند لها يومياً، وتلك مصيبة رهيبة جداً لا تؤدي إلى انحراف النسل الآتي فحسب، بل حتى أنّ حفاظهم على استقامتهم حالياً أمر عجيب.

الآجال وتبرئة القاتل

السؤال: إن كان وقت الأجل وكيفيته معيناً مسبقاً فما ذنب القاتل؟

الجواب: إن زمن الموت وكيفيته قد عُيّنا مسبقاً كما هو معيّن لكل شيء. بمعنى أن ما هو وارد وواقع للكائنات قاطبة وارد وواقع أيضاً لحياة الإنسان وموته. فالحقيقة التي لا يمكن العدول عنها هي بلوغ كل موجود إلى الوجود بطرق معينة ومضي حياته وفق أسس معينة، ثم بعد مدة معينة يجري انسحابه من مسرح الحياة.

نعم، إن كل شيء يولد وينمو ثم يموت سائراً وفق خطة مرسومة معيّنة له ضمن دائرة قدر عامة واسعة جداً. فهذا نظام عام أزلي لا يتبدل ويمتد حتى للآباد.

إنه من الواضح جداً بالعلوم الحديثة وبقواعدها وأسسها الثابتة الشاملة النابعة من صميم الكون الذي يسير وفق نظام دقيق وفي انسجام بديع يحيّر العقول، أن لكل شيء تعييناً مسبقاً وتقديراً معيناً بدءً من الذرات إلى المجرّات. ولا يمكن إيضاح النظام البديع للكون ولا الانسجام الرائع الذي فيه، بل لا يمكن إحراز أي تقدم في العلوم الصرفة إلاّ بمثل هذا التعيين والتخطيط المسبق.

إن ما في الكون الواسع من نظام دقيق وهندسة رائعة والسائر وفق قوانين رياضية مقننة معينة هو الذي يدفع إلى القيام ببحوث ودراسات في مختبرات الفيزياء وفق أسس معينة ودراسة وشرح علم التشريح ضمن قواعد معينة، أو الانطلاق إلى أعماق الفضاء. إذ لا يمكن قطعاً البحث عن العلوم في كون لا نظام فيه وفي عالم لا خطة فيه وفي مجموعة من الطبيعة التي لا تعمل بنظام. بل العلوم أصلاً غدت عدسة لقسم من القواعد والأصول فدخلت الكتب تحت عنوان "العلوم".

لا شك أننا هنا لا نريد الحط من أهمية العلوم ومكتشفاتها، بل نريد التذكير بموقعها ومكانها، ونلفت النظر إلى ما هو أهم وأجلّ وهو النظام والانسجام البديع الذي كان موجوداً في الكون قبل كشف العلوم عنه. فكأن هذا النظام كالقلب النابض للكون. فما أعظم القدرة التي عينت هذا النظام البديع بخطة قدرية مسبقة وجعلته أساساً للكون أجمع. حتى ظهر من علماء الاجتماع من يريد تطبيق هذه القوانين المهيمنة في العالم "النازلة من الأعلى" على المجتمعات الإنسانية. فعلى الرغم من أن الدعوة إلى القدر إلى هذا الحد أو بتعبير أصح الجبرية المفرطة معرضة للاعتراض والانتقاد دائماً إلاّ أنها ذات مغزى عميق من حيث الاعتراف بالنظام الحاكم على العالم أو بالخطة الأزلية المسبقة للعالم.

إن أية حقيقة تمس العقيدة مستغنية عن إسناد وتصديق من خارجها، ولكن جيلنا الحاضر غير المحظوظ الذي زاغ بصره بكثير من النظرات الأجنبية وانحرف قلبه بكثير من هذيانات خارجية عندما نخاطبه: "ارجع إلى رشدك!"، نعتقد أن بيان التناقض –ولو بالإشارة– في أقوال الذين أفسدوا هذا الجيل وأضلّوه فيه فائدة. وإلاّ فسير الكون برمته وفق تناسب بديع ونظام دقيق، من الذرات إلى المجرات والانسجام الكامل والتعيين والتقدير المسبق الذي يربط كل شيء ببعضه، يملأ البصر، مما يدل على حاكمية مطلقة مهيمنة. فالعوالم مذ خلقها الله منقادة إلى هذه الحاكمية المطلقة وتخضع في تحولاتها خضوعاً تاماً لأوامرها.

وعلى الرغم من أن الخلق الأول جبري كلياً بالنسبة للمخلوقات كافة، بما فيها الإنسان وما شابهه –ممن له الحرية والإرادة– فإن هذه المخلوقات ذات الإرادة والحرية تتمايز عن أقرانها في الأمور التي تندرج تحت إرادتها، ولأجل هذا التمايز يأخذ التعيين المبدئي (المسبق) نمطاً خاصاً به.

وفي الحقيقة إن السؤال الوارد نابع من عدم إدراك هذه الجهة المتميزة في الإنسان، وعدّه كالأشياء الأخرى تماماً. ولهذا نعتقد أن إدراك مثل هذا

الفرق بين الإنسان وسائر المخلوقات –حتى لقسم منه– يحلّ المسألة. أما بقية المسألة فهي عبارة عن قبول إحاطة العلم الأزلي بكل شيء.

نعم، إن للإنسان قابلية الحرية والإرادة والميل والاختيار بخلاف المخلوقات الأخرى. وينسب إلى الإنسان الخير والشر والثواب والعقاب حسب تلك الحرية والإرادة والميل والاختيار.

ومهما كانت إرادة الإنسان وميله ضئيلاً أمام عِظَم النتائج الحاصلة، إلاّ أن الله سبحانه قد قبِلها شرطاً وسبباً لإظهار ذلك الأمر الجزئي –الذي نسمّيه الإرادة– على هيئة ميلٍ نحو الخير أو الشر، فيكون الإنسان بموجب توجه تلك الإرادة نحو الخيرات أو الشرور مذنباً أو بريئاً. والحادثة الناتجة من هذا الميل مهما كانت ثقيلة بحيث لا يمكن أن تُحمّل على ظهر الإنسان إلاّ أنه هو الذي دعاها وطلبها بميله إليها؛ لذا فالعقاب والثواب يعودان إليه. وتعالى الله عن المسؤولية التي قدّرها وعيّنها وخلقها في وقتها علواً كبيراً.

ولنفهم هذا في ضوء هذا المثال:

لو ربط الخالق العظيم حادثة عظيمة كتبدل المواسم بشهيقنا وزفيرنا. وقال: "إنْ تنفّستم أكثر من هذا الحد شهيقاً وزفيراً فسوف أبدل الوضع الجغرافي لموقعكم". فلو ارتكبنا المحظور لعدم رؤيتنا علاقةً ما بين تنفسنا وتبدل الموسم حسب قاعدة "تناسب العلية"، وهو سبحانه وتعالى بدّل الموسم حسب ما وعد، فالمسؤولية تقع على عاتقنا حيث إننا السبب في ذلك، رغم أن الفعل يفوق طاقتنا بكثير.

ومثل هذا أيضاً: إن كل إنسان يعدّ آثماً ويعاقب، أو بريئاً ويكافأ حسب ما لديه من إرادة جزئية واختيار. وذلك لكونه سبباً في النتائج الحاصلة.

والآن لنقف قليلاً عند الشقّ الثاني من المسألة، أي كيفية التوفيق بين العلم الإلهي المحيط بكل شيء وإرادة الإنسان.

في العلم الإلهي، كل شيء في الوجود وما وراءه هو جنب إلى جنب ومتداخل، بأسبابه ونتائجه. بحيث يكون في تلك النقطة، قبلُ وبعدُ، السبب والنتيجة، العلة والمعلول، الابن والأب، الربيع والصيف... وجهان للواحد. فيُعلم بعدُ كقَبلُ، والسبب كالنتيجة، والمعلول كالعلة ويحكم هكذا.

فأيما شخص وبأي شكل وبأي اتجاه يكون ميله، وبأية جهة سنستعمل، إرادته التي هي شرط عادي، فإن تقدير وتعيين تلك النتائج الحاصلة من تلك الأسباب المعلومة مسبقاً لا تقيّد إرادة الإنسان ولا تكرهه على شيء. لأن ميول الإنسان قد أُخذت بنظر الاعتبار وعدّت فقدّرت بحقه هذه التقديرات. لذا فإن إرادته قد قبلت إذن وأُعطيت لها الأهمية. مثال ذلك:

لو قال شخص عظيم لخدّامه: "متى ما كتَمتم سعالكم تنالون الهدايا السخية، ومتى ما اصطنعتم السعال فلكم العقاب والحرمان من الهدايا". فمعنى ذلك أنه قد قبل إرادتهم وعزّزها.

وكذلك الأمر هنا. فلو قال الله ﷻ لعبدٍ من عباده: "إذا ما أظهرتَ ميلاً بهذا الاتجاه، فأنا أخلق ما ملتَ إليه، وأنا أُعيّن ذلك من الآن حسب ميلك إلى ذلك". فمعنى هذا أنه سبحانه قد أعطى أهمية لإرادة الإنسان.

وبناء على هذا فكما أنه لا تقييد في التعيين المبدئي فلا إكراه أيضاً بما يخالف رضا الإنسان قطعاً.

ثم إن القدر والتعيين المبدئي (المسبَق) عبارة عن الخطة العلمية الإلهية إن جاز التعبير. أي علمه ﷻ بالإنسان وميول الإنسان ووضع خطة وبرنامج وفق ما سيقوم به الإنسان.

والعلم لا يعني وجود ما سيحصل بشكل من الأشكال في الخارج، بل إنَّ قدرة الخالق وإرادته هي التي توجد ذلك الشيء في الخارج بشكل من الأشكال وحسب ميول الإنسان. ولهذا فالأشياء التي ستظهر وتَرِدُ إلى الوجود لم تَرِدْ لأنها عُلمت هكذا. وإنما عُلمت بالأشكال التي وردت. وهذا

هو التقدير المَبدئي والتعيين الأولي. وعلماء الكلام يعبّرون عن هذا بأن "العلم تابع للمعلوم"، أي كيف يكون الشيء هكذا يُعلم. وليس لأنه عُلم هكذا فحَصل. فكما لا يلزم خططنا العلمية وجود ما تصورناه من الأشياء، كذلك بديهي أن ما نعدّه خطط الخالق من التعيينات المبدئية ليس من الضروري أن توجِد شيئاً في الخارج.

حاصل الكلام: إن الله ﷻ المحيط بعلمه الواسع بكل شيء –السابق واللاحق– يعلم الأسباب كالنتائج، ويعلم النتائج كالأسباب. فقد علم سبحانه مَنْ ينوي النية الحسنة ليؤدي عملاً حسناً، ومن يحاول ارتكاب السيئات. وحسب هذه النيات والمحاولات عيّن وقدّر ما سيخلق... فيخلق الأشياء التي قدّرها حسب مشيئته عندما يحين وقتُها وحسب ميل المكلّف ونيته.

ولهذا فإن التعيين المبدئي لموت الشخص وكيفيته وكون الشخص الآخر سبباً في الحادث لا يرفع المسؤولية، وذلك لأن التقدير قد قُدّر بأخذ إرادة الإنسان وحريته بنظر الاعتبار، ولهذا يسند جرمه إليه ويحاسب عليه.

ونرى من الضروري الاطلاع على المصدر الأساس في هذه المسألة العميقة المتعلقة بالقدر ودراستها مكرراً، لأن ما بيّناه عبارة عن توضيح بمستوى العوام، ضمن الأُسس الرصينة للسلف.

ماهية إرادة الكلية والجزئية

السؤال: ما هي "الإرادة الكلية" و"الإرادة الجزئية"؟

الجواب: الإرادة الكلية، هي الإرادة التي تُنسب إلى الله ﷻ لدى العوام، ولكن هذا الاصطلاح لم يكن موجوداً في عهد الصحابة والتابعين وتابع التابعين. فهم لم يطلقوا على الإرادة الإلهية "الإرادة الكلية" ولا على إرادة الإنسان "الإرادة الجزئية". والظاهر أنه لا بأس من وضع اصطلاح كهذا لأجل فهم العوام للمسألة. علماً أن كلامي هذا مفتوح للانتقاد.

وفي الحقيقة أن اصطلاحاً كهذا، نابع عن تعبير طبيعي وتقييم لنتائج الحوادث والوقائع. لذا يمكن أن يعدّ نقطة استناد صائبة.

وقد قُصد من "الإرادة الكلية" التي أطلقت على الإرادة الإلهية هذه المعاني، وهي أن جميع الإرادة تخص الله ﷻ. فالإرادة هي اسم لإرادته ﷻ. فمتى ما أراد هو ﷻ يخلق ما أراد مِن دون النظر إلى إرادة غيره. وهنا نريد أن نلفت نظركم إلى ما ذكرناه سابقاً وهو: أن البعض يقولون: "يخلق ما يريد ولا يخلق ما لا يريد" وهذا الكلام خطأ. والصحيح: "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن".

فالجبر هو الحاكم في الكون. فعندما خلق سبحانه الكون لم يسأل أحداً و لم يتخذ أية إرادة أساساً، فهو ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾(البروج؛ ١٦)، ولكنه منَح الإنسان إرادة. هذه الإرادة وسيلة ترقّ وتدنٍ للإنسان. فمنْح هذه الإرادة يتعلق باسم الله "الرحمن الرحيم". أي أنه لطْف إلهي بتجلي هذين الاسمين. وإلاّ لو نظرنا إلى الأشياء من زاوية الاسم الأعظم ولفظ الجلالة (الله)

فالكون برمته في جبر مطلق. نعم، إن "مالك الملك يتصرف في ملكه كيف يشاء"... هذه القاعدة سارية في المفعول على جميع الموجودات، سوى الإنسان الذي أُعطي له إرادة مجهولة الماهية. فمتى ما صرف إرادته هذه إلى الخير، فالله يخلق الخير، وإذا ما صرفها للشر، فالله سبحانه يخلق الشر إذا شاء. وما ساقَنا إلى الجُرأة في هذا الحكم إلاّ اعتمادنا على رحْمانية ربنا ورحِيميَّته.

أي أننا نعتقد متى ما أردنا الخير فالله سبحانه وتعالى يخلقه قطعاً. ولكن الله سبحانه وتعالى بلطفه وكرمه لا يخلق الشر أحياناً عندما يريده الإنسان. فمثلاً شخص يحاول أحدهم أن يضلّه بشتى الوسائل، فيميل إليه، ولكن الله سبحانه لا يريد إضلاله ولا يخلق الضلالة لعلمه بما عمل من حسنة في الماضي أو بما سيعمله من حسنة في المستقبل. حتى أنه سبحانه يوجِد مانعاً بحيث يبعده عن تلك السيئة، فيحول بينه وبين السيئة. فهذا عطاء ربانيّ، وحتى الجنة، لأنها -من جهة- مرتبطة باستعمال الإنسان لإرادته... فالله ﷻ يخلق ما أريد باسم الخير، ويكفي للإنسان ألاّ يرتكب إثماً عظيماً يزيل كل الخيرات فيحرم من استحقاقه الإحسان والعطاء من الله.

عطاء الله[1]

السؤال: كيف توضِّح قانون "العطاء" لله سبحانه؟

الجواب: العطاء لغةً: هو اللطف والإحسان والهبة، والإعطاء من نفس الكلمة. وجهة العطاء المتعلقة بالقضاء والقدر هي التي تمس موضوعنا. فإذا ما أراد الإنسان الشر فالله سبحانه يقدّره له. إذ التقديرات بحق الإنسان إنما تقدر بأخذ إرادة الإنسان بنظر الاعتبار. فمثلاً: إن كان رَفْعي ليَدي مقدراً قبل رفعي لها، فهو لأن الله سبحانه يعلم أنني سأصرف إرادتي وميلي إلى تلك الجهة. لأن صفة علم الله محيطة بكل شيء -ما حدث وما لم يحدث- حتى بذاته الجليلة. لذا فهو يعلم ما سأفعله، وهكذا يقدّر. "إن عبدي فلان سيميل إلى رفع يده وأنا سأخلق هذا الرفع". أو "أنا كتبت هذا هكذا" وهذا هو القدَر. أي كتابة هذا هكذا هو القدر. أما حين رفعي لليد، فهو القضاء. أي إنفاذ ما قُدّر لي.

أما العطاء فيمكننا فهمه بالصورة الآتية:

يصرف العبد إرادته وميله نحو الشر. ولكن الله يخصّه بعطاء فيحول بينه وبين الشر لوضع حسن لذاك العبد أو لحمله قلباً زكياً أو لعمله الحسن. وبهذا لا ينفّذ بحقه ما قُدّر له. فالعطاء أثّر في القدر، والقدر أثّر في القضاء. ولكن كل هذا يجري في لوح المحو والإثبات. ولا شيء يتغير قط في العلم الإلهي. فلوح المحو والإثبات -من جهة- دفتر الإنسان الخاص به، يمكن أن يحدث فيه التغيير، ولكن التغيير غير وارد أصلاً في اللوح المحفوظ.

والعطاء لطْف إلهيّ. ولا يشترط في اللطف الاستحقاقُ والأهلية. فإذا ما نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية نجد أن جميع الحسنات التي نعملها ما هي إلاّ عطاء إلهي.

فهرس

الفصل الأول القَدَر بأبعَادِه المختَلفة

الفصل الثاني علاقة القضاء بالقدَر

الفصل الثالث علاقة القَدَر – الإرَادَة – الهدَايَة

الفصل الرابع أسئلَة وأجوبة حَولَ القدَر

المصادر

مسلم: صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (توفي ٢٦١ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن ماجة: سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني (توفي ٢٧٥ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

أبو داود: سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي (توفي ٢٧٥ هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

البخاري: الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (توفي ٢٥٦ هـ)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير- اليمامة، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م.

الترمذي: الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (توفي ٢٧٩ هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الدارمي: سنن الدارمي، عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي (توفي ٢٥٥ هـ)، تحقيق: فواز أحمد زمرلي – خالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧.

شرح صحيح مسلم للنووي: صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي (توفي: ٦٧٦ هـ)، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٣٩٢ هـ.

الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، بديع الزمان سعيد النورْسي، دار سوزلر، القاهرة، .

كشف الخفاء للعجلوني: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (توفي ١١٦٢ هـ)، تحقيق: أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٤٠٥ هـ).

المسند لأحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني (توفي ٢٤١ هـ).

كتاب الزهد لابن المبارك: الزهد ويليه الرقائق، عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي أبو عبد الله، (توفي ١٨١ هـ)،

صدر للمؤلف الكتب الآتية باللغة العربية

١. النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية (مجلدان)

٢. سلسلة النور الخالد (٧ أجزاء)

٣. القدر في ضوء الكتاب والسنة

٤. أسئلة العصر المحيّرة

٥. روح الجهاد وحقيقته في الإسلام

٦. طرق الإرشاد في الفكر والحياة

٧. أضواء قرآنية في سماء الوجدان

٨. الموازين أو أضواء على الطريق

٩. ترانيم روح وأشجان قلب

١٠. ونحن نقيم صرح الروح

١١. حقيقة الخلق ونظرية التطور

١٢. التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح

www.ar.fgulen.com